مـارجري هـيلتون

طائر بلا جناح

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

THE WHISPERING GROVE

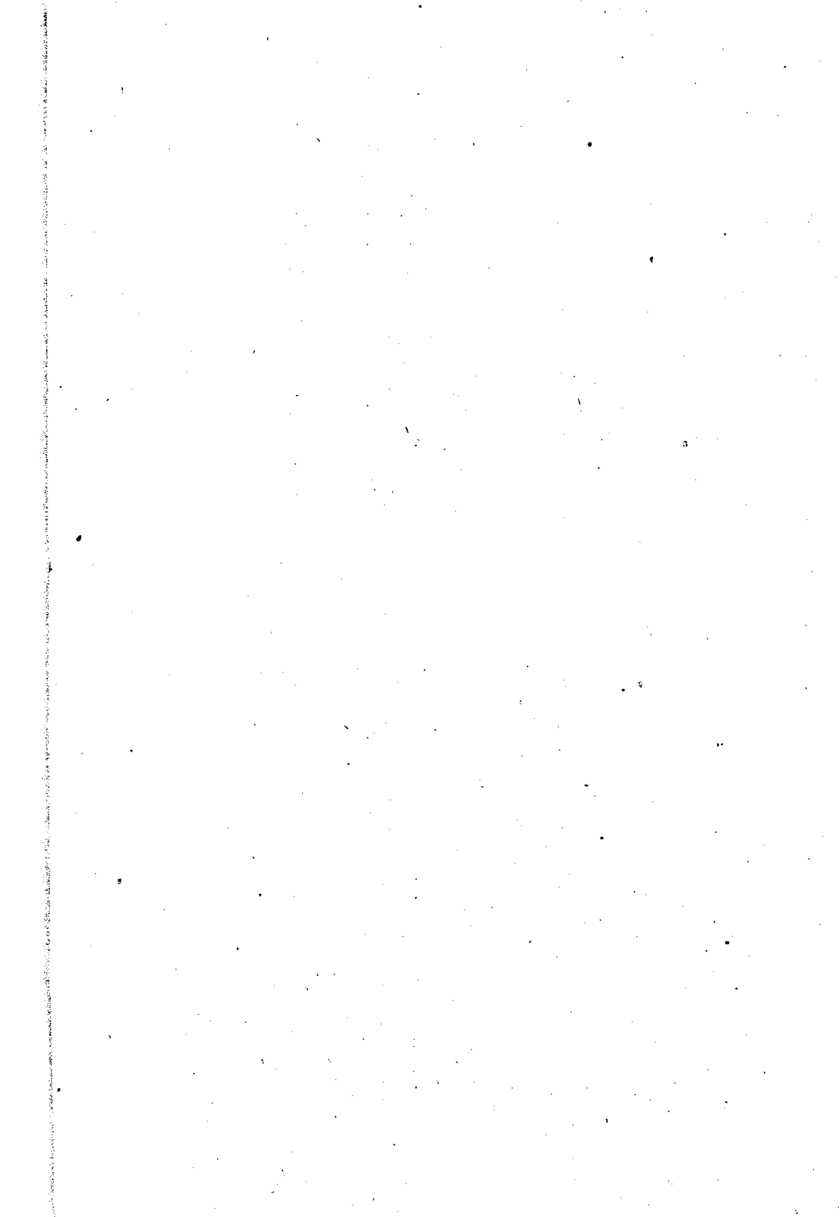


روايات عبير

منذ صدور هذه الروايات في العالم العربي، بعدما طالعها القراء عبر جهات الأرض الأربع، ونحن نتلقى التهاني والتشجيع ورسائل الشذى الطيبة من كل مكان.

لأن هذه الروايات بطاقات سفر ذهاباً فقط الى عالم اللقاء العاطفي وصفاء الأحلام، ولأنها لمسة نسيم بالغة الرقة، ورفيقة المطالعة المفضلة لدى الملايين في العالم كله.

اربطوا حزام الأمان فالرحلة الى عالم الحب تبدأ في الصفحة التالية!



١- جزء من الحياة

أمعنت هيلين النظر في الفقرة ذاتها للمرة الثالثة، ولكنها لم تفقه شيئاً من معناها. فاكتفت بالاستماع الى حفيف الصفحات المصقولة التي كانت تقلّبها بتبرّم وحدّة. حاولت ان توحي لنفسها بأنها تنعم بالهدوء ورباطة الجأش، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك. فأعصابها متوترة الى درجة الانفجار، ومشاعرها تتخبط بالرغبات المتناقضة والافكار المتشابكة.

وتساءلت هيلين بدهشة، كيف كان يمكنها الاعتقاد بأن سفرها ليلا سيشكّل النهاية السهلة لجميع مشاكلها ومتاعبها! وهل من الممكن ان اللجوء الى طائرة خافتة الانوار، تحلّق في ظلام دامس، سيوفر عليها آلام مشاهدة معالم المدينة المحببة لنفسها تختفي الواحدة تلو الأخرى! وشدّتها رغبة قوية لالقاء نظرة اخيرة على تلك المدينة حيث تكمن ذكرياتها وسعادتها. وانهمرت الدموع من عينيها وهي تتذكر بيتها وعملها وكفين.

شددت هيلين قبضتها على المجلة التي اصبحت بين يديها مجرد وريقات قاسية وباردة. ولكنها قررت الا تستسلم لعواطفها. فركّزت نظرها وتفكيرها على لوحة التعليمات الى المسافرين وأعدّت نفسها لعملية الاقلاع التي ستبدأ بين لحظة وأخرى.

واثناء ارتفاع الطائرة عن الأرض انتاب هيلين شعور بالخوف لم يبدده سوى صوت هادىء ومرح يقول:

«لا بأس الآن، لقد اصبحنا في الجو».

التفتت هيلين الى مصدر الصوت يلفّها احساس بالخجل بسبب الضعف الذي بدا عليها. فواجهتها ابتسامة عريضة من طفلة تجلس قربها. وبتهذيب واضح قالت الفتاة الصغيرة:

«هل يمكنك فتح حقيبتي البيضاء هذه؟ يوجد فيها عطل، وأنا بحاجة الى منديلي من داخلها».

فتحت هيلين الحقيبة الجلدية، وأعادتها الى الفتاة الممتنة مع ابتسامة قلبية تقديراً لأخلاقها الرفيعة. وكان اكثر ما اعجبها في جارتها الصغيرة تصرّفها المنظّم والهادىء بالرغم من انها على ما يبدو ليست برفقة احد. ومع تأكد هيلين من ان شركات الطيران تعتني بالأطفال الذين ارغمتهم الظروف على السفر بمفردهم، فقد بدت الفكرة مخيفة ومذهلة. اليس من الممكن ان يحدث خلل ما في افضل الخطط المعدّة لتأمين راحة الطفل المسافر، او ان يصل هذا الطفل الى وجهته ولا يجد احداً في استقباله، او. . .

«يمكننا فك احزمة المقاعد الآن».

قالتها الفتاة الجريئة وهي تنفّذ تلك العملية الصغيرة بيسر ورشاقة. وبعد ان وجّهت ابتسامة رقيقة نحو المضيفة التي طلبت منها ذلك، نظرت الى هيلين وقالت:

«لقد تمرنت عشرات المرات على ربط احزمة الأمان وفكّها، عندما سافرت مع جدتي الى ايطاليا في العام الماضي».

ثم عادت الطفلة الى حقيبتها لتخرج منها بعض الحلويات وتعرض قسماً منها على جارتها قائلة:

«هل أثّر الارتفاع المفاجىء على أذنيك»؟

فردّت عليها هيلين بالايجاب ووجّهت اليها سؤالا مماثلا:

«وهل تأثرت اذناك انت بسبب الضغط الجوّي»؟

«لا، لأنني طوال الوقت امضغ الحلوى وأبلعها. آه اسمعي، ان قائد الطائرة يتحدث الى الركاب».

اصغت الفتاة الصغيرة بكل اهتمام الى المعلومات التي كان يدلي بها قائد الطائرة، والتي انهاها كالمعتاد بتوجيه تمنيات طيبة للمسافرين برحلة مريحة وجيدة.

لم تسمع هيلين كلمة واحدة من تلك الرسالة، لأنها كان تراقب عن كثب رفيقة سفرها التي اثارت فيها نوعاً من حب الاستطلاع. فالطفلة ليست فائقة الجمال بالمعنى المتعارف عليه، ولكن قسمات وجهها الصغيرة

والبارزة تشعّ جمالا فتّاناً خاصاً، وتوحي بشخصية قوية ومميزة. كذلك فان شعرها الاسود الطويل الشبيه الى حد كبير بشعر هيلين املس وناعم ومشدود الى ما وراء الرأس في عقدة جميلة وجذّابة. وعيناها العسليتان واسعتان وبراقتان وتنمّان عن ذكاء وسرعة خاطر. وفجأة قالت الفتاة الصغيرة:

«هل أنت مسافرة الى نيروبي عاصمة كينيا»؟

«نعم. الا انني سوف اتوجه منها الى محطة اخرى».

«وأنا ايضا».

ثم تنهّدت الصغيرة وأضافت بشيء من التأفف والتململ:

«اتمنى لو ان هذه الطائرة ذاتها هي التي ستوصلني الى وجهتي. بالمناسبة، الى اين انت ذاهبة»؟

ابتسمت هيلين وقالت:

«لا اعتقد انك سمعت بها بالمرة. انها جزيرة صغيرة في المحيط الهندي بين مدغشقر وموريشيوس تدعى...».

«جزيرة سلمندر، أليس كذلك»؟

واستوت الفتاة في جلستها ثم اضافت:

«الى هناك حقاً ستذهبين؟ أنا اعيش في تلك الجزيرة».

وحان دور هيلين لتبدي دهشتها. فقالت لجارتها الصغيرة:

«وأنا ايضا. بالأحرى سوف اعيش هناك مع انني لم ازرها ابداً من قبل».

«ما اسمك ايتها الآنسة؟ أنا ادعى جولييت فالمونت. ولدت في جزيرة سلمندر. أوه كم اشعر بالحماس والاغتباط لأنني سأعيش هناك مع والدي. لقد عشت في انكلترا منذ كنت في الرابعة من عمري. وفاة والدتي اضطرتني لذلك».

وخيّم شعور من الحزن والأسى على وجه جولييت. ثم مضت تقول:

«أصاب امي نوع من الحمّى، وقال لي والدي ان هناك مكاناً واحداً فقط يمكن ان تشعر فيه بالراحة، ويجب علينا ان ندعها تذهب الى هناك مع انها لن تتمكن ابداً من العودة الينا».

نسيت هيلين مشاكلها واحزانها وهي تستمع بشفقة الى الصغيرة

جولييت، ثم قالت لها بحنان:

«اعرف ذلك يا عزيزتي لأن امراً مماثلا حدث لأمي عندما كنت طفلة رضيعة».

هزّت جولييت برأسها علامة الفهم والاستيعاب وتابعت رواية قصتها:

«بعد ذهاب والدتي اضطررت للسكن مع جدي وجدتي لأن والدي لم يكن قادراً على الاعتناء بي بمفرده. انه مدير شركة لانتاج السكّر وتكريره. في العالم الماضي أتى الى لندن لتمضية عطلته السنوية، وعند انتهائها اردت العودة معه الى سلمندر، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك. لقد افتقدته كثيراً بعد ذهابه. وكنت ابكي لفترة طويلة كلما وصلتني منه رسالة، لدرجة ان جدي وجدتي وافقا اخيرا على زيارتي له. انظري....».

وسحبت جولييت زنارها الحريري الناعم وقالت:

«انظري. لقد خسرت بعضاً من وزني، فقد امتنعت عن تناول الطعام اكثر من مرة. من الآن فصاعداً سأهتم كثيراً بوالدي وأرعاه، فأنا كبيرة بما فيه الكفاية. انني في الثامنة من عمري».

وتوقفت جولييت عن الحديث لالتقاط انفاسها، ثم تطلعت نحو هيلين وسألتها:

«وأنت هل ستهتمين بوالدك مثلي»؟

هزّت هيلين رأسها علامة النفي، وقالت:

«لا، اني سأعيش مع زوجة ابي وابنتها. فوالدي اصيب بنوبة قلبية في العام الماضي، وكان عليه الذهاب الى مكان آخر للاستشفاء».

رفعت جولييت حاجبيها وكأنها فهمت كل شيء، وتطلعت كل منهما نحو الأخرى بشيء من الشفقة والعطف. وكانت جولييت سبّاقة في الخروج من جو الحزن وشرود الذهن. فتغيّرت ملامحها فجأة، وكأنها تذكرت تعليمات معينة كادت تهملها. وقالت بلهجة جدّية:

«هل أضايقك بحديثي او بتصرفي»؟

دهشت هيلين لهذا التحول المفاجىء وأجابتها فوراً:

«ابداً معاذ الله. كنت منزعجة من طول الرحلة، ومن انني لا اعرف احداً على الطائرة يمكنني التحدث معه».

ظهر الارتياح على وجه جولييت وقالت:

«وأنا ايضا كنت منزعجة. ولكن جدتي اوصتني بألا اشكّل ازعاجاً للآخرين».
«لا لست مزعجة على الاطلاق، ولكن...».
وترددت هيلين لحظة ثم اضافت قائلة:
«ولكن، ليس من الحكمة دائما مصادقة الغرباء. فكم هناك من اصحاب السوء الذين يبدون للوهلة الاولى اناساً طيبين ومهذبين».
«اعرف ذلك. جدتي اخبرتني. ولكن بامكاني ان افرق بين الناس الطيبين فعلا واولئك الذين يتظاهرون بالحسنى».
وقالت هيلين لنفسها وكأنها تخاطب جولييت بصمت:
«وهل بمقدورك فعلا يا حكيمتي الصغيرة؟ اتمنى ان تتذكري يا حبيبتي ان الاتكال على الغريزة فقط لا يمنع الانسان من الوقوع في الخطأ».
في هذا الوقت بدأت المضيفات بتقديم اطباق الطعام. والتهمت جولييت جميع الأصناف المقدمة اليها وكأنها عازمة على استعادة ما خسرته من وزن بأسرع ما يمكن. الا ان شهية هيلين كانت شبه مفقودة، ولذا عرضت على جارتها طبق الحلوى المخصص لها فأخذته جولييت بسعادة فائقة، شاكرة اياها على مبادرتها الطيبة. وظلت هيلين خائفة لمدة عشر دقائق تسأل نفسها ما اذا كان من الحكمة اعطاء حصتها الى الفتاة الصغيرة، وبأي ذنب ستشعر اذا اصيبت معدة جولييت بارتباك او ألم نتيجة لذلك. الا ان شيئا من هذا لم يحدث، بل على العكس فقد استمتعت كثيراً بمأكولاتها، وقالت لهيلين:
«اشعر الآن بتحسن كبير».
ثم استرخت في مقعدها وتنهدت قائلة:
«اتعلمين انني نسيت تقريباً ملامح والدي. لقد مضت سنة بكاملها من غير ان اراه».
«سوف ترينه غداً ان شاءالله، ولم يعد يفصلنا عن الغد سوى ساعات قليلة».
«اتمنى ان يأتي الغد في هذه اللحظة».
«لماذا لا تحاولين النوم قليلا يا حبيبتي؟ الوقت سيمر سريعاً اذا كنت نائمة».

ابتسمت جوليبت علامة الرضى وقالت:

«هذا ما ذكرته لي جدتي. فقد قالت انها ستتخطى جميع القواعد والاصول لتتركني اسهر امس ما شئت، وذلك حتى انام طوال الوقت في الطائرة. ولكنني لا اشعر الآن بالنعاس».

نظرت هيلين الى وجه صديقتها الصغيرة بتفحّص، فتبينّ لها مدى التعب والارهاق اللذين يخفيهما الحماس الشديد لملاقاة الوالد. وقالت لها بهدوء:

«ان لم تخلد جارتي الحلوة للنوم الآن فلن تتمكن من التحدث كثيراً مع والدها غداً بسبب التعب والارهاق».

هزّت جوليبت راسها علامة القبول والرضى، وتابعت هيلين حديثها بلهجة حنونة ومقنعة:

«اغمضي عينيك الآن وتخيّلي اشياء جميلة. تظاهري بأنك تحلمين وسترين انك ستنامين خلال لحظات».

أطاعت جوليبت تعليمات صديقتها الجديدة، فكوّمت نفسها باتجاه هيلين ووضعت رأسها بين المقعدين. وبعد فترة وجيزة من الصمت، قالت جوليبت:

«اني افكر بليلة أمس. لقد ودّعتني جدتي بطريقة مميزة، اذ اخذتني الى حفلة باليه. انا احبّ الباليه، جدتي قالت ان جزيرة سلمندر تفتقر الى هذا النوع من الرقص».

تمالكت هيلين اعصابها التي توترت فجأة، وسألت جوليبت عما شاهدته في حفلة الأمس، فأجابت:

«بحيرة البجع، وهي اجمل مسرحية باليه شاهدتها في حياتي. تدور حول فتاة جميلة سحرها ساحر شرّير وحوّلها الى بجعة. وقد وقع الأمير بحبها، الا انه كانت للساحر الشرّير ابنة ادّعت انها ملكة البجع...».

وتنهدت جوليبت قليلا ثم اشرق وجهها الصغير وقالت:

«ووعد الأمير بأن يتزوج البجعة السوداء، فحدث برق ورعد أفزعا الجميع. وكانت البجعة البيضاء تبكي خارج النافذة لأنها تعرف مصيرها المحتوم وهو الموت. والفتاة التي تقمصت دور البطلة كانت اجمل راقصة في العالم».

ثم تمتمت قائلة بعد ان اغمضت عينيها بسبب النعاس الشديد:
«اوه يا هيلين، كم اتمنى ان اصبح راقصة باليه».
في ذلك الوقت كان الحزن قد استبد بهيلين فلم تتفوه بأية كلمة خوفاً من ان تخونها نفسها وأعصابها. وتدفقت على رأسها وافكارها الذكريات الأليمة لعالم كانت تتربع على اعلى قممه، حتى سلب منها القدر القاسي ذلك السحر البرّاق. لقد عايشت هيلين مرة واحدة تلك المعاناة الشديدة للبجعة البيضاء، كما سعدت بتقديم تلك الشخصية المأساوية على مسرح الباليه.
في تلك الساعات القليلة التي تقمصت فيها هيلين دور الأميرة الجميلة كان المجد الساطع والمستقبل الزاهر على قاب قوسين او ادنى من متناول يديها. ولكن القدر سلب منها ذلك المجد وتلك السعادة عندما ارسل امام دراجتها بقعة كبيرة من الزيت وكلباً صغيراً مذعوراً. فهوت هيلين... وتهاوى معها عرش الأحلام، وبدت امامها الحقيقة المرة. لقد انتهت كراقصة باليه ولن تتمكن ابداً من العودة الى الرقص.
اثناء ذلك كانت الطائرة الضخمة تتابع طريقها في فضاء اوروبا على علو آلاف الاقدام عن الأرض. وعندما اطفأت المضيفة جميع الأنوار تقريباً داخل الطائرة، شعرت هيلين بالنعاس يزحف سريعاً الى عينيها المتعبتين. وقبل ان تستسلم الى النوم رفعت الساعد الذي يفصل بين المقعدين وحضنت رأس جولييت برفق وحنان قائلة لنفسها: الماضي مضى الى غير عودة. والمستقبل كله امامي ويجب ان ابدأ من جديد انطلاقاً من هذه البقعة الصغيرة في المحيط الهندي. ومع انها ستصل الى محطتها الاخيرة كانسانة غريبة، الا ان تلك الجزيرة ستكون موطنها الذي لم يعد لها سواه. ترى ماذا سيحمل لها المستقبل، وهل بالامكان تعويض ما فات؟
أفاقت هيلين على تقلبات جولييت، فاستوت في مقعدها وتطلعت من النافذة الصغيرة الى خيوط الفجر الارجوانية تنبىء بحلول يوم جديد. ثم سمعت صوتاً ناعساً يقول:
«هل اصبحنا على اهبة الوصول»؟
نظرت هيلين الى ساعتها وهزّت رأسها نفياً قائلة:
«لا يزال امامنا بعض الوقت على ما اعتقد».

«هل نحن الآن فوق افريقيا»؟

ابتسمت هيلين وردّت بالايجاب.

«ان افريقيا كبيرة جداً من حيث المساحة، أليس كذلك»؟

وقبل ان تتمكن هيلين من الرد عليها، وجّهت اليها جولييت سؤالا بمنتهى الجدية، وبصوت هامس تقريباً:

«أرجوك يا هيلين، هل يمكنني البقاء معك؟ اعني عندما تحط الطائرة في نيروبي وننتقل الى الطائرة الأخرى».

«بالطبع يا حبيبتي، سأبقى معك حتى أتأكد من ملاقاتك والدك. اما الآن فيجب ان نجمع اغراضنا لنكون جاهزين تماما لمغادرة الطائرة لدى وصولها الى نيروبي».

ولكن عندما حطت الطائرة الضخمة في مطار العاصمة الكينية، اقتربت احدى المضيفات من جولييت وتولت امر انزالها قبل بقية الركاب، مع ان الفتاة الصغيرة احتجت بتهذيب على ذلك، لأنها ارادت النزول مع رفيقة سفرها. ودّعتها هيلين بابتسامة تشجيعية، مفترضة ان المضيفة تطبق التعليمات الصادرة بهذا الخصوص، والتي تنص على تسليم الطفلة الى مسؤولين في شركة الطيران الأخرى يتولون هم مسؤوليتها لحين صعودها الى الطائرة الثانية.

كانت فترة الانتظار تزيد على الساعة. وهي مدة طويلة اذا امضاها الانسان بمفرده، الا انها ليست كافية بتاتاً لمغادرة المطار والقاء نظرة سريعة علىْ معالم المدينة. وتنهدت هيلين بحسرة لأنها على ارض افريقية ستغادرها الى غير رجعة، ومع ذلك فانها غير قادرة على مشاهدة اي شيء من نيروبي سوى المطار. وكانت سلواها الوحيدة ان المطار نفسه كان جذاباً بأبنيته الجميلة وحدائقه الرائعة التي تسبح تحت اشعة الشمس الافريقية الساحرة.

وكمعظم المسافرين العابرين، توجهت هيلين الى متجر المطار الذي يجذب السياح عادة بما فيه من مصنوعات وطنية جميلة، وخاصة اليدوية منها، بالاضافة الى البطاقات الملونة الرائعة.

اختارت هيلين عدداً من تلك البطاقات ثم ذهبت تبحث عن المطعم. وطوال هذا الوقت كانت عيناها تبحثان عن جولييت بدون جدوى. وفي

قاعة الطعام، انتقت هيلين ركناً هادئاً وطلبت كوباً من عصير الفاكهة، وبدأت تختار اسماء الذين سترسل لهم بطاقاتها. هذه لسارة، وهذه لكيم، اما تلك التي تظهر كثافة الاشجار فسوف ترسلها الى ليزا لأنها زارت مرة تلك المستعمرة الشاسعة للحيوانات البرية قرب نيروبي. وهذه البطاقة الخاصة والمميزة لكفين، وتلك عن الطائر المائي الطويل العنق والساقين، الفلامنكي، فسوف ترسلها الى...

سقط القلم من يدها وتدحرج الى ما تحت المقاعد. وضاعت افكارها بين الماضي والحاضر، وشعرت بغصّة وألم شديدين عندما اخذت تتذكر الوطن ومن تحب. اين هم الآن يا ترى؟ وماذا يفعلون، سارة وليزا وكيم و... اية مسرحية باليه يتدربون عليها هذا الصباح؟ اعلى هذه ام تلك؟ ام على المسرحية التجريدية الجديدة لمارك كايلار التي كان يعدّها للعرض في كوبنهاغن عاصمة الدانمرك؟ وأخذت هيلين تتخيلهم مهرولين الى المسرح ومتجمعين داخل القاعة يطالبون ببريدهم، او...

رفعت هيلين يداً مرتجفة الى جبينها وعضت على شفتها بقوة. هل ستستطيع الهروب من ذكرياتها؟ هل ستتمكن من مواجهة الواقع المر بأن حياتها الفنية قد انتهت، وانها لن تعود ابداً الى...

وقفت فجأة ووضعت بطاقاتها بعصبية داخل حقيبتها، وبدأت تمشي. كان عليها ان تتحرك، ان تسير، ان تفعل شيئا، اي شيء، بدلا من الجلوس بمفردها بين هذا الحشد من المسافرين تحارب ذكرياتها وتقاوم احزانها. ثم تطلعت الى ساعتها. لقد حان تقريبا موعد اقلاع الطائرة. اين هي جولييت الآن يا ترى؟

ارغمت هيلين نفسها على نسيان الماضي ولو لفترة، وعادت ادراجها الى قاعة المسافرين العابرين. وبمجرد وصولها سمعت احدى الموظفات تعلن عن اقلاع طائرتها المتجهة الى سلمندر. تطلعت حولها علّها تشاهد جولييت، ولما لم تجدها توجهت مسرعة نحو الطائرة.

وفي الطائرة استغربت هيلين كيف ان فتاة صغيرة لم تتعرف عليها الا منذ بضع ساعات تمكنت من اكتشاف شعور الضيق والانزعاج الذي يخيّم عليها. وارغمت نفسها على الابتسام قائلة:

«الا تعرفين يا عزيزتي ان الكبار لا يتحلون بنصف شجاعة الصغار

عندما يضطرون للابتعاد عن محيطهم وأماكن عيشهم لبدء حياة جديدة في مكان غريب»؟

ثم استدركت مسرعة لتغيير هذا الموضوع الحسّاس:

«لم تخبريني بالتفصيل عن صديقك قائد الطائرة، فأنا لم اشاهده طوال الرحلة».

كانت جولييت سعيدة جداً لأن الفرصة سنحت لها لتصف مطولا بطلها الجديد وذلك اللقاء الرائع معه. ونسيت بالتالي تلك الملاحظات التي كانت على وشك توجيهها. وتطلعت هيلين من النافذة لتشاهد جزيرة زنجبار وكأنها جوهرة خضراء تشع ببريق أخّاذ. وفي هذا الوقت صمتت جولييت وظهر عليها التعب والارهاق بسبب طول الرحلة. وتذكرت هيلين التوقف القصير في جزر الكناري حيث الحرارة قوية جداً لدرجة ان عدداً من الركاب نزل من الطائرة واحتمى بظل جناحيها. وخلال دقائق معدودة، عاد الى جولييت الصغيرة نشاطها كاملا. واخذت تقوم وتقعد وتنظر الى ساعتها بعصبية وتأفف، ثم تتطلع من النافذة وتعود الى القفز والحركة، الى ان صرخت:

«ها هي جزيرتنا، ها هي سلمندر».

وعندما اقتربت هيلين من النافذة، تابعت جولييت حديثها قائلة:

«انظري، انظري الى العين، انه اعلى جبل في الجزيرة وهو جبل بركاني ويسمونه عين سلمندر».

وعندما بدأت الطائرة بالهبوط، ربطت هيلين حزام الأمان بأعصاب هادئة وباردة. لقد وصلت اخيراً الى سلمندر، موطنها الجديد. حطت الطائرة بقوة شديدة شعرت معها هيلين وكأنها ستقفز من مقعدها. الا ان هذا لم يحدث لجولييت التي اسرعت بفك حزامها وهرعت الى مقدمة الطائرة لتكون اول المغادرين.

نزلت هيلين من الطائرة لتصدمها موجة من الحر الخانق، وأشعة الشمس الحارقة. اخذت يد جولييت ومشت واياها نحو مبنى صغير على الجانب الايمن للمطار. واخذت هيلين تحدّق في وجوه المستقبلين علّها ترى زوجة ابيها ماريز وابنتها نورين اللتين وعدتا باستقبالها.

فجأة سحبت جولييت يدها من قبضة هيلين وركضت باتجاه رجل طويل

القامة يرتدي بدلة بيضاء توحي بالاناقة والغنى. فتح الرجل ذراعيه لاحتضان جولييت التي رمت بنفسها عليه وطوقته بذراعيها واخذت تقبّله على وجنتيه.

لم يكن هناك شك لدى هيلين بأن هذا الرجل هو والد جولييت، وبأن صديقتها الصغيرة وصلت بأمان الى المحط الأخير في رحلتها الطويلة. وشعرت هيلين وهي تتابع سيرها البطيء بأنها فقدت شيئا ما. وتخيّلت مدى عذابها وتعاستها لو لم تحظ برفقة جولييت.

«هيلين، هذه انت! اننا هنا يا حبيبتي. كدنا لا نعرفك في بادىء الأمر».

شدّتها ماريز الى صدرها بلهفة وقبّلتها بحنان. ثم حملت عنها حقيبة اليد واعطتها لفتاة شقراء طويلة هي بلا شك نورين ابنة زوجة ابيها من زواج سابق. وتذكرت هيلين انها رأت نورين قبل خمس سنوات عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها وتهوى احمر الشفاه ومستحضرات التجميل. لم تعد تلك الفتاة البدينة ابداً، بل اصبحت جميلة الوجه والقامة تثق بنفسها لدرجة الكبرياء. اخذت نورين الحقيبة من امها واعطتها بدورها الى رجل هزيل الجسم، شاحب الوجه يقف على بعد خطوتين ويبدو على محيّاه الضجر والسأم.

تولت ماريز التعريف بين ابنة زوجها وكيت مانتون ثم سألتها:

«هل كانت رحلتك جيدة»؟

«نعم، ولكني شعرت في وقت من الأوقات بأنني لن اصل الى سلمندر».

«اعتقدنا انك ربما كنت بحاجة للمساعدة فأحضرنا كيت معنا».

وبعد ان نظرت ملياً الى هيلين، تابعت ماريز حديثها:

«ولكن يبدو انك تمشين بشكل طبيعي. من المؤكد ان الحادث لم يكن سيئاً بالقدر الذي تخيّلناه».

قاطعتها نورين بحدة قائلة:

«اوه يا امي، لماذا هذا الكلام! اضطرار هيلين للتخلي عن مهنة الرقص لا يعني اننا سنستقبلها على حمالة... مع انها تبدو لي بوضع عادي جداً».

وتدخّل كيت مقاطعاً:

«هل علينا ان نظل واقفين هكذا في هذا الحر الشديد؟ لنؤجل الاحاديث السخيفة الى وقت لاحق».
ابتسمت ماريز لابنة زوجها، متجاهلة ملاحظات كيت، وقالت:
«اوه لقد نسيت ان اخبرك ان الطقس ليس حاراً هكذا على الساحل. لقد تبين للمسؤولين هنا ان هذه المنطقة هي الأفضل لبناء المطار، مع ان درجة الحرارة فيها هي الأعلى تقريباً بين جميع مناطق الجزيرة».
تطلعت هيلين لتكتشف فعلا ان المطار مبني على سهل ضخم بيضاوي الشكل تحيط به التلال من كل جوانبه. وفي هذا الوقت وصل الجميع الى مركز شرطة المطار وتولى كيت الاهتمام بأوراقها وجواز سفرها. ثم قالت ماريز:
«كيت سيهتم باحضار حقائبك. هذه سيارته في الخارج. لقد كنا محظوظين لأن لا عمل لديه بعد ظهر اليوم، فسيارتنا موجودة في. . .».
لم تسمع هيلين بقية الحديث اذ تحول انتباهها الى السيارة الفخمة البيضاء امام بوابة مبنى المطار. وكان الرجل الطويل القامة يضع حقيبة على المقعد الخلفي ويحث فتاة صغيرة على الدخول الى جانبه على الرغم من اعتراضاتها التي وصلت بوضوح الى مسامع هيلين:
«ولكن يا ابي انها هنا. اريد فقط ان. . .».
«لا يا جولييت، ليس الآن».
«نعم، ولكن. . .».
عندما اقفل كيت صندوق سيارته الحمراء اخفى ذلك الصوت القوي كلام جولييت. فتطلعت هيلين نحو زوجة ابيها وسألتها:
«ذلك الرجل هناك، أليس هو السيد فللونت والد تلك الفتاة الصغيرة؟»
وباستغراب قالت نورين التي كانت تهيىء نفسها للجلوس في المقعد الامامي:
«نعم انه جستن فللونت. هل تعرفينه؟».
«كلا، ولكن ابنته جولييت رافقتني طوال الرحلة من لندن. لقد بدت رحلة طويلة جداً لفتاة صغيرة تسافر بمفردها. وكنت اتساءل. . .».
توقفت هيلين عن متابعة جملتها، عندما لاحظت ان قريبتيها والرجل

المرافق لها يتطلعون فيها بدهشة وحيرة.

ضحك كيت مانتون بصوت عال وقال:

«كنت تتساءلين ما اذا كانت الفتاة قد وصلت الى أيد امينة».

وضحك مرة ثانية وتابع حديثه:

«اطمئني، فهذا هو جستن فالمونت بنفسه. اما الفتاة فلا اعرفها ولم اشاهدها ابداً من قبل».

ويبدو ان الرجل الطويل سمع اسمه، فتطلع نحوهم ببرودة، وبتعمد واضح اغلق الباب الامامي، ليمنع جولييت من النزول من السيارة. الا ان الفتاة الصغيرة اخرجت رأسها من النافذة، ولوّحت بيديها بحرارة لهيلين.

رفعت هيلين يدها لترد التحية ثم انزلتها ببطء، بعدما شعرت بنوع من عدم الراحة بالنسبة الى الوالد. وكانت تلك المرة الاولى التي تلقي فيها هيلين نظرة واضحة على جستن فالمونت. وجهه ذو لون رائع بسبب التعرّض الدائم لأشعة الشمس، وشعره اسود كثيف مع مسحة من المشيب تدغدغ صدغيه، وملامحه متناسقة ومتناغمة تعكس وسامة وقوة شخصية.

وفجأة انحنى جستن قليلا وقال شيئا ما لجولييت، ثم استدار حول السيارة ليصعد وراء المقود وينطلق بسيارته الفخمة. دخلت هيلين سيارة كيت مانتون، وجلست قرب ماريز في المقعد الخلفي. وعندما انطلقت السيارة اخذت زوجة ابيها بالثرثرة، الا ان هيلين لم تسمع شيئا من كلامها، لأنها كانت تفكّر في جولييت الصغيرة، وكيف اصبحت، خلال هذه الفترة القصيرة جداً، وكأنها جزء من حياتها.

٢- الخضرة واغاني العصافير

كانت فيللا أوريليا تبعد حوالى نصف ساعة عن المطار، الا ان كيت ماتتون وصلها باقل من عشرين دقيقة. وأمضت هيلين تلك الدقائق القليلة في التفرج على الطبيعة الجميلة، والردّ على اسئلة ماريز المتلاحقة.

ارتفعت معنوياتها وازدادت سعادتها. فمن المؤكد ان هذه المناظر الخلابة ستساعدها كثيراً على النسيان. انها بحاجة ماسة لهذا الانتقال، ومما لا شك فيه أنّ الجزيرة...

توقفت السيارة امام مدخل الفيللا، وسمعت ماريز تقول:

«ها قد وصلنا يا حبيبتي».

ظلت هيلين جالسة بدون حراك، تحدّق خارج السيارة. ثم اختفت من عينيها وافكارها تلك الآمال البهيجة ومشاعر اللهفة المفرحة. اهذه هي الفيللا التي ارسل لها والدها صوراً عنها! لا، لا يمكن. هناك خطأ ما! الحشائش البرية تغطي الحديقة المنسية بشكل مفزع، والبوابة الخارجية تكاد تقع، ودهان الحائط...

سيطرت على اعصابها ومشاعرها، وتبعت زوجة ابيها الى الداخل. يجب ألاّ تنتقد... يجب ان تتذكر ان فترة ثمانية عشر شهراً قد مضت على وفاة والدها. من المؤكد ان ماريز عانت كثيراً بعد ان اصبحت وحدها فجأة. وليس معها سوى نورين، التي لم تكن آنذاك قد بلغت السابعة عشرة. يجب ان يكون هناك سبب ما...

قررت هيلين طرد الافكار المزعجة من رأسها وحاولت ألاّ ترى الا الجوانب الايجابية والمشرقة. فلا بأس اذا كانت هناك بعض الدلائل على قلة الترتيب، فليس كل شخص مؤهلاً ليكون مثالاً يحتذى في مجال النظافة

والترتيب. اليست صديقتها ليزا عنواناً للفوضى وسوء التنظيم! الم تكن شقتها الصغيرة وغرفة ملابسها في المسرح...
«تفضلي. يبدو أنك بحاجة اليه».
كيت يقف قربها حاملاً كأساً من الشراب البارد. وعندما ترددت في قبوله، قال لها مازحاً:
«لا تخافي! انه عصير الليمون».
اخذت الكأس شاكرة، وراحت تتأمل ذلك الرجل الذي كان يتصرف وكأنه في منزله. ولكنه لم يبد انه من الرجال الذين كان يصادقهم والدها. هزت رأسها محاولة مرة اخرى طرد الافكار السلبية. لقد حضر كيت الى المطار للمشاركة في استقبالها، واعتنى بأوراقها وأغراضها، ووضع سيارته تحت تصرفها. ربما كانت مرهقة من السفر، والارهاق يشوش الافكار. ومهما كانت الأمور، فانها تمنت ذهاب هذا الرجل. فمن الصعب جداً ان تحاول اقامة علاقة عائلية مع سيدتين تكاد لا تعرفهما، بحضور شخص غريب كلياً عنها.
ولكنه بقي لتناول العشاء معهم. ومما زاد في انزعاجها ان الثلاثة الآخرين كانوا يستعدون لتمضية السهرة في الخارج. وجاء توجيه الدعوة على لسان ماريز:
«الهدف من سهرتنا الليلة هو الاحتفال بوصولك ايتها الحبيبة. وصديقنا كيت يدير النادي الليلي الراقي الوحيد في هذه الجزيرة».
احتجت هيلين بتهذيب قائلة:
«ولكنني لم اتمكن حتى من افراغ حقائبي بعد!»
رفعت ماريز حاجبيها علامة الاستغراب وقالت:
«لن يستغرق ذلك منك وقتاً طويلاً. ونحن يجب ان نرتدي ثياب السهرة. كما اننا لسنا مضطرين للاسراع والعجلة».
اشعل كيت مانتون سيكارة، وقال بتثاقل:
«اعتقد أن علينا الغاء سهرة الليلة يا ماريز، فالصبية تبدو مرهقة جداً. يمكننا تأجيل السهرة حتى ليلة غد مثلاً».
شعرت هيلين بامتنان عميق لهذا الرجل الغريب الذي وفر عليها مشقة الرفض، او الذهاب مرغمة. وعندما شعرت باستياء ماريز، سارعت الى

القول:

«هذا لطف منكم. ولكن الحقيقة، كما قال السيد مانتون، هي اني متعبة جداً».

وترددت قليلاً ثم تابعت حديثها:

«ارجوكم الاّ تفسدوا سهرتكم بسببي. فانا يمكنني البقاء وحدي، ان لم يكن لديكم مانع».

ضحك كيت مانتون وقال:

«المسألة بسيطة للغاية. هيلين ترتاح وتنام، ونحن نذهب الى النادي. فما رأي السيدتين الكريمتين؟»

اتفق الجميع على هذا الحل. فذهب الثلاثة الى سهرتهم وتوجهت هيلين الى الغرفة المخصصة لها. وخلال دقائق معدودة... كانت تغط في نوم عميق.

ازاحت الغطاء الرقيق ثم سارت نحو النافذة ورفعت الستارة المعدنية. الشمس الذهبية الساطعة، والخضرة الاستوائية الجميلة والشاطىء الرملي الجذاب... واغاني العصافير.

هل هي حقيقة أم خيال! هل تحلم! هل من المعقول انها ستفيق صباح كل يوم على هذه الموسيقى الرائعة واللوحة الفنية الأخاذة! نعم، انه الواقع. انه الحاضر والمستقبل، ولا عودة الى الماضي. فكل صباح جديد سيبعدها خطوة بل خطوات عن ذلك الماضي الحزين وتلك الذكريات المؤلمة. ولكن، هل ستخف وطأة الحنين والشوق؟

استحمت ولبست ثيابها، ثم خرجت تتنزه على الشاطىء بعد ان لاحظت ان ماريز ونورين كانتا خارج المنزل. مشت بخطوات بطيئة تتأمل البحر والجبال القريبة... وتفكر، ماذا سيكون مستقبلها! وكيف ستمضي الدقائق، والساعات، والأيام، لا بل السنين القادمة! في الماضي، كانت كل دقيقة مخصصة لشيء ما، وكل يوم يمضي وفق برنامج معدّ سابقاً. اما هنا، فماذا ستفعل؟

في انكلترا، كان الجميع يعتقدون شبه جازمين بأن الانتقال الى جزيرة استوائية في المحيط الهندي هو افضل وسيلة لمساعدتها على تقبّل الواقع الجديد الذي فرضته النهاية المأساوية المفاجئة لمهنة كانت تعتبر انها خلقت

لها. وتذكرت كلمات صديقتها ليزا:
«اوجه جديدة، امكنة جديدة، شمس مشرقة طوال السنة. انك فتاة محظوظة جداً. تمتعي بالدفء... بالحرية... باللامسؤولية. وعندما تشعرين بمسحة من الملل، وهذا امر مستبعد جداً، ما عليك الا ان تتذكري بردنا القارس... وارهاقنا اليومي و...».
وشعرت هيلين بالدموع تسيل على خديها. آه، لو كان بالامكان ان تعود! انها مستعدة للتخلي عن كل شيء في العالم، اذا كانت قادرة على العودة! انها...
«هذا تعدّ على أملاك الغير، ايتها الآنسة».
استدارت هيلين بسرعة نحو مصدر الصوت وقالت لجستن فالمونت مدافعة عن نفسها:
«اني اقوم بنزهة على الشاطىء، وهذا لا يمكن اعتباره تجاوزاً او تعدياً».
اقترب منها فالمونت وقال لها باصرار:
«وقطعة الأرض هذه هي ممتلكات خاصة، والشاطىء...».
وتوقف فجأة، فما كان منها الا ان اكملت جملته ببرودة:
«والشاطىء ايضاً... ممتلكات خاصة!».
تأملته لحظة وقالت لنفسها من المؤكد ان جولييت فالمونت لم ترث سحرها ولطفها وحسن معاملتها من والدها! ثم مضت الى القول بأنفة وكبرياء:
«لم تكن لدي اية نيّة او رغبة في انتهاك حرمة الاراضي الخاصة. ارجو ان تتقبل اعتذاري عما حدث وتأكيداتي بأن ذلك لن يحدث مرة اخرى».
واستدارت الى الناحية الاخرى لتعود الى المنزل، فسمعته يقول وقد اصبح أمامها:
«لا داعي للاعتذار، اذ كيف يمكنك معرفة هذه الممتلكات من تلك وانت لم تصلي الا بعد ظهر امس!»
ظلت هيلين واقفة في مكانها بدون ابتسام او تعليق على جملته، وكأنها لا تريد منه سوى الابتعاد عن طريقها. ولكنه مضى قائلاً بهدوء:
«اسمحي لي ان اعرّفك بنفسي! انا جستن فالمونت. واعتقد اني مدين لك بالشكر الجزيل على اهتمامك بابنتي ورعايتك لها اثناء الرحلة من

انكلترا».

ردت عليه هيلين بلهجة مماثلة، من حيث الشكليات واللياقة الاجتماعية، قائلة:

«انني لم اقم، يا سيد فالمونت، باكثر مما كان سيقوم به اي انسان عاطفي آخر نحو طفلة صغيرة تنتقل من قارة الى اخرى بمفردها».

تأمل تعابير وجهها لحظة وقال لها بهدوء بالغ، ربما لأنه شعر بمسحة من التوبيخ والتأنيب في لهجتها:

«أنا مدرك تماماً ما عانته جولييت طوال تلك الرحلة المرهقة. وقد حزّ في نفسي كثيراً أنني لم أتمكن من اعداد ترتيبات اكثر ملاءمة لها. ففي هذا الوقت لم اتمكن من أخذ اجازة للذهاب الى لندن واحضارها بنفسي».

«لا داعي لهذا التوضيح. فأنت والد جولييت، وامر رعايتها والعناية بها يعود برمّته اليك وحدك فقط».

ابتسم فالمونت بصورة غير متوقعة وقال:

«ان من يستمع اليكِ الآن يقول انك تختلفين تماماً عن الفتاة التي كانت الموضوع الوحيد تقريباً في احاديث ابنتي ليلة امس».

ثم ابتسم وسألها:

«هل ارتكبت خطأ ما؟»

تذكرت هيلين ما حدث في المطار وكادت ان تخبره حقيقة شعورها. ولما احس بأنها امتنعت عن الاجابة، سألها مرة اخرى:

«هل انت متضايقة لأنني لم اسمح لجولييت بتولي مهمة التعريف بيننا في وقت غير ملائم على الاطلاق؟»

اه، اذن انه يتذكر! وكان رفضه متعمداً! وتأكدت شكوكها، تلك الشكوك التي بدأت حيرة وتطورت الى ان اصبحت الآن حقيقة واقعة. ان كيت مانتون لا يعجبه، وماريز لا تعجبه... وبالتالي فهي لا تعجبه. ونسيت الوضع التعيس لفيللا اوريليا، فعلى الاقل زوجة ابيها، وحتى كيت مانتون، هما انسانيان، وهذه صفة يصعب منحها لهذا الشخص المتعجرف والمستبد.

وجّهت اليه نظرة عدم اكتراث ورفعت حاجبيها قائلة:

«متضايقة؟ انا لم اعر هذه المسألة اي اهتمام على الاطلاق.

وباختصار...»

«أبي، أبي، اين انت؟ اريد... آه، انتَ هنا!»

ما ان خرجت جولييت من بين الاشجار وشاهدت هيلين حتى اطلقت صرخة فرح والقت بنفسها عليها قائلة:

«وأنت ايضاً هنا! كنت اتطلع الى لقياك. اليس الطقس رائعاً وحاراً؟ ساصبح اكثر اسمراراً من...»

صمتت لحظة لالتقاط انفاسها، ثم تطلعت الى والدها قائلة:

«أبي، اعرّفك بهيلين. جئنا سوية من لندن».

ثم وزّعت نظراتها بين والدها وهيلين، وسألتهما:

«هل ستتابع نزهتنا على الشاطىء؟ أريد البحث عن بعض الاصداف».

ردت عليها هيلين بدون تفكير:

«يوجد عدد لا بأس به من الأصداف الجميلة على هذا الشاطىء».

«اين، اين؟ هل بالامكان ان تدليني على امكنتها؟»

ترددت هيلين، فتدخل جستن فالمونت على الفور:

«ربما كانت لهيلين مخططات اخرى لأول يوم من وجودها هنا. لا يمكنك ان تتوقعي منها التخلي عن كل شيء لمشاركتك في جمع الاصداف، بمجرد ان تطلبي منها ذلك!»

شعرت جولييت بصدمة وقالت لهيلين:

«هل عليك القيام بأعمال كثيرة؟»

«لم أفرغ حقائبي بعد، اذ انني كنت مرهقة جداً الليلة الماضية. آسفة يا حبيبتي، فلو لم يكن عليّ القيام بهذه المهمة لذهبت معك بكل سرور بحثاً عن الاصداف».

تنهدت جولييت مقتنعة، وقالت:

«أوه، حسناً. ربما تمكنا من جمع الاصداف مرة اخرى».

وكأن جستن فالمونت قرأ افكار هيلين في تلك الأونة، فقال لها:

«إذا أخذت هذا الطريق الترابي الى اليمين فانه سيوصلك الى الطريق الرئيسي. ومن هناك تمشين حوالى عشر دقائق فتصلين الى فيللا اوريليا، التي ستكون ايضاً الى اليمين من الطريق».

شكرته بتهذيب ثم قالت لجولييت محاولة حبس دموعها:
«الى اللقاء يا جولييت. ارجو ان تتمكني من جمع اكبر كمية من الاصداف الرائعة».
وصلت هيلين الى البيت لتجد ماريز ونورين تتناولان فطورهما، فانضمت اليهما لعلّ ذلك يساعدها على التخفيف من آثار ذلك اللقاء المزعج مع فالمونت. الا ان امتعاضها من تصرفاته ولهجته ظل مهيمناً على الجزء الاكبر من تفكيرها. كان واضحاً تماماً ان الرجل مصمم على انهاء العلاقة الودية البريئة التي قامت بينها وبين ابنته اثناء تلك الرحلة الطويلة.
اقترب الاسبوع الاول من نهايته ولم يتم اي لقاء آخر بين صديقتي الرحلة الجوية، كما اسمتهما ماريز. وتحسّرت هيلين على ذلك، لأن الترفيه البسيط الذي يوفره شاطىء نظيف وصحبة فتاة صغيرة لطيفة هو افضل بمئات المرات من ذلك النوع من الترفيه الذي يشرف كيت مانتون على تقديمه في النادي الليلي.
واثناء جلوسهن الى مائدة الافطار صباح الاحد، تطلعت ماريز الى هيلين وسألتها:
«هل امضيت وقتاً ممتعاً ليلة امس؟»
لم تود هيلين جرح مشاعر ماريز، فاطلقت كذبة بيضاء عندما ردت عليها بالايجاب شاكرة لها دعوتها والاهتمام بها. ولكن زوجة الأب لم تكتف بذلك، بل مضت الى القول:
«تصورت ان الشاب تريفور هيرلي مأخوذ بك امس، هل دعاك الى الخروج معه؟»
هزت هيلين برأسها، وتذكرت ان تريفور الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره لم يتحدّث في الليلة السابقة الا عن وجهات نظره المتطرفة بالنسبة لاعادة التنظيم في سياسة انتاج السكر.
«انا متأكدة من انه سيدعوك قريباً. ولكن عليك تشجيعه قليلاً».
لم تقل هيلين شيئاً، لأنها لم تكن لديها ادنى رغبة في تشجيع اي رجل او شاب على دعوتها او مغازلتها. وكيف يمكنها ذلك وكفين لا يزال الماً موجعاً في قلبها!
«بالمناسبة، ماذا حدث مع ذلك الصبي الذي كنت تكتبين لنا عنه؟

كنيف. . . لا، كفين؟ هل انهارت علاقتكما؟»

«لم تكن هناك علاقة قوية لتنهار».

راقبتها ماريز بعطف وحنان ثم قالت:

«سوف تتجاوزين المشكلة هنا بدون صعاب. فعلى اي حال كان الشاب غريب الاطوار الى حد ما. هذا على الاقل ما فهمناه من رسائلك»

ثم ابتسمت وتابعت قائلة:

«بضعة اسابيع من اللهو والمرح هنا وتقعين في حب احد الرجال الوسيمين الاغنياء. اليس كذلك يا نورين؟»

كانت ابنتها صامتة طوال الوقت، تستمع بمرح الى الحديث عن الرجال. وعندما وجهت اليها والدتها ذلك السؤ ال، ارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت:

«الحب؟ اوه يا امي، الم تكتشفي بعد ان ما يسمى بالحب ليس الا حديث خرافة؟»

ثم حولت انظارها الى هيلين قائلة:

«صدقي او لا تصدقي! فان مشاعر الحب والافكار الرومنطيقية لا تزال تدغدغ قلب امي بين الحين والآخر، حتى في هذه السن».

أجابتها والدتها بلهجة عادية وكأنها لم تتأثر او تتضايق:

«ولماذا هذه المرارة يا حبيبتي؟ صدف أنك كنت سيئة الحظ في علاقتك الغرامية الاولى، كما حدث مع هيلين. الا ان هناك الآن راي سنداننا، وهو يجن بك».

تنهدت نورين ثم تحولت فجأة الى هيلين قائلة:

«لماذا لا تغيّرين تسريحة شعرك؟ اعتقد انه لو كان اقصر لجعلك اكثر جاذبية. . . واقل جدية. الا توافقين معي على ذلك يا امي؟»

أمضت ماريز وابنتها الدقائق العشرين التالية في ثرثرة فارغة حول التسريحات التي يفضلها الرجال، وماذا ستفعل كل منهما طوال ذلك اليوم، واين ومع من ستمضيان السهرة! اما هيلين فقد ابلغتهما بانها ستقوم بنزهة في الحقول والبساتين، بعيداً عن الضجيج. .

رن جرس الهاتف فقامت نورين للرد عليه. ثم عادت بعد لحظات وقالت لهيلين بجدية بالغة:

«المكالمة لك ايتها العزيزة. انها من رجل».

«لي أنا؟ ولكن. . .»

انها لا تعرف أحداً ليتصل بها هاتفياً. ولم يمر على وجودها في سلمندر وقت كاف ليصبح لديها اصدقاء.

تدخلت ماريز مشجعة وقالت مبتسمة:

«أراهن بأن هذا الرجل هو تريفور. الم اقل لك انه سيدعوك للخروج معه؟ اسرعي يا عزيزتي، لا تدعي العاشق ينتظر طويلاً».

اسرعت هيلين الى القاعة ورفعت السماعة لتعرّف عن نفسها.

«هيلين سيلفاين».

«مرحباً آنسة سيلفاين، فالمونت هنا».

ولكن لماذا يتصل بها جستن فالمونت؟

«يجب ان اعتذر اولاً على ازعاجك صباح هذا اليوم. ولكن لدي طلب عاجل بالنيابة عن ابنتي».

«جولييت. . . هل هي بخير؟»

«انها تعاني من ضربة شمس والافراط في اكل الفواكه الطازجة. انا ألوم نفسي لأنني لم انتبه لهذه الاحتمالات. . .».

«وكيف هي الآن؟».

«لقد احضرت لها الطبيب واعطاها دواء خاصاً لمثل هذه الحالات، وهي الآن على ما يرام. انها فتاة صغيرة متعبة ويجب ان ترتاح في سريرها مدة يوم او يومين. . . وتتمنى من صميم قلبها ان تتمكني من زيارتها».

«مسكينة جولييت! بالطبع سآتي لزيارتها. متى تريدني ان احضر؟ اليوم؟»

«اذا كان ذلك ممكناً. اما اذا كانت هناك ارتباطات او ترتيبات اخرى، فلا داعي للعجلة. هل يناسبك يوم غد اكثر؟»

«لا، لا. وقتي لي، اتصرف به كما اشاء. قل لي يا سيد فالمونت، متى بدأ مرضها؟»

«ليلة الخميس».

عضت هيلين على شفتيها قائلة:

«ليتني عرفت قبل الآن، لكنت. . لكنت ربما ساعدتها بشيء او بآخر».

«كانت تحاول الاتصال بك امس، فلم تفلح. وحاولت انا نيابة عنها، ولكن احداً لم يجب».

«كنا خارج المنزل معظم يوم امس».

«اذن، هل يمكنني ان اعد جولييت بانك ستأتين حوالى الرابعة بعد الظهر؟»

«نعم. لن أتأخر. هل من شيء يمكنني احضاره لها؟»

وشعرت فجأة بتفاهة هذا السؤال وسطحيته. فماذا يمكنها ان تحضر لها في يوم العطلة هذا، ولم يكن والدها قد احضره سابقاً!

«شكراً، ولكن مجرد حضورك سيفرحها كثيراً. سوف ارسل طوم لاحضارك في الرابعة الا عشر دقائق. هل اتفقنا؟»

اجابته بكلمة نعم. وقبل ان تفكر بشيء آخر تقوله، سمعته يقول لها وداعاً... ويقفل الخط.

٣- اولى خفقات القلب

بعد ان زالت دهشتها من الاتصال غير المتوقع من فالمونت، أخذت هيلين تعدّ نفسها للزيارة. وعندما اقترب موعد وصول السائق، بدأت دقات قلبها تتسارع وعادت اليها الحيرة بالنسبة الى الهدية الرمزية التي تنوي تقديمها للصديقة جولييت.

وفجأة تذكرت العلبة الموسيقية التي تحتوي على راقصة باليه صغيرة ترقص على أنغام لحن مشهور بمجرد فتح الغطاء. إنها رخيصة الثمن، ومستعملة، ولكنها ذات قيمة معنوية وعاطفية. فهي الشيء الوحيد الذي أعطاها أياه كفين. وتذكرت كلماته عندما قال لها ضاحكاً:

«ولماذا لا نهدر أموالنا مرة؟ انت تريدينها... وانا سأشتريها لك. انها تمثّل حالنا يا حبيبتي... راقصة باليه وبيانو. تقبّليها مني... ستجلب لك الحظ».

أقفلت الغطاء بعصبية، فاختفت الراقصة الصغيرة وصمتت الموسيقى. فمن الجنون التعلق بذكريات عاطفية لا تعود عليها الا بالحزن والألم. الأفضل ان تتخلى عنها وأن تنسى، وكذلك أن تأمل في ان تسعد هذه اللعبة صديقتها الصغيرة ولو للحظة عابرة.

وفيما كانت هيلين تغادر غرفتها، دخلت نورين وقالت لها مبتسمة:

«انه فستان حريري رائع ويناسبك كثيراً. ولكن لماذا لا تستغلّين المناسبة لتسريح شعرك الجميل بطريقة جذابة؟»

«ولماذا أفعل ذلك وأنا في طريقي لزيارة جولييت؟»

هزّت نورين كتفيها ثم قالت لها بلهجة حرجة وشبه ساخرة:

«انها مناسبة مثيرة للاهتمام. فعلى الأقل انت تبدأين بأفضلية لم تحصل

عليها اي منا».

ظلت هيلين حائرة لا تعرف مغزى هذه الملاحظات، فما كان من نورين الا ان قالت ضاحكة:

«بالله عليك، كفي عن تمثيل دور البلهاء. فكأنك لم تعرفي انني اتحدث عن اكثر الرجال جاذبية في هذه الجزيرة نصف الميتة. حسناً يا صغيرتي. فليكن ما تريدين. انك ذاهبة فقط لرؤية جولييت، التي يبدو انها متعلقة بك الى حد ما، وانت تحملين لها معك هدية صغيرة. انها حقاً خطوة ذكية وتغطية رائعة».

أصيبت هيلين بدهشة حقيقية عندما لاحظت أخيراً الهدف الذي ترمي اليه نورين من تلك الوخزات المتلاحقة. ولأن حيرتها كانت اقوى وأشدّ من انزعاجها، اكتفت بالتساؤل:

«وهل تعنين السيد فالمونت، والد جولييت؟ احقاً تعتقدين ان...؟»

توقفت هيلين لحظة ثم تابعت حديثها بمرح مماثل وابتسامة تحمل الكثير من المعاني:

«ولكنني لا اكاد اعرف الرجل!»

«ها قد سنحت لك الفرصة الآن. وحظاً سعيداً لك... فانك ستحتاجينه».

احمرت وجنتا هيلين لأنها شعرت بشيء من الضيق والانزعاج بسبب تلك الجملة الأخيرة وقد تذكرت اللقاء الوحيد الذي تمّ مع جستن فالمونت. ثم قالت:

«أحتاجه؟ لا يا عزيزتي، فأنا لا احتاج الى الحظ السعيد في هذا المجال... ولا اريده. فشكراً لك».

تمددت نورين على السرير وقالت لهيلين بعد ان لاحظت احمرار خديها:

«لا داعي لهذا الاحتجاج العصبي. ما اعنيه هو انه لماذا لا تحاولين؟ فكلّنا حاولنا. وفي حال الفشل، يمكنك دائماً الاعتماد على وجود تريفور هيرلي».

حدّقت بها هيلين بدون التفوه بشيء، وكأنها فقدت القدرة على الكلام. هل هذا هو كل ما يفكرن به! ملاحقة الأزواج المحتملين او تحليل فرص كل منهن في سعيها وراء الزوج المطلوب! وفجأة قالت لها بلهجة

باردة:

«أنا لست مهتمة بجستن فالمونَت على الاطلاق. والمرات النادرة التي التقيته فيها قبل الان لا تشجعني أبداً على تغيير نظرتي السلبية اليه».

«هذه هي المشكلة يا عزيزتي. انه جاف جداً مع النساء ويحاول ابعادهن عنه. واذا أحبته فتاة ولم تفلح في كسب مودته او حبه فانه قادر على تدميرها. لقد كنا جميعاً نعتقد في العام الماضي بأن لوسي سندانا أوقعته في شباكها. كانت متأكدة من ذلك لدرجة بدأنا نعدّ العدّة لحضور حفلة زفافها. وفجأة، أصيبت بشبه انهيار عصبي وغادرت الجزيرة لتقيم مع اختها، وعاد جستن الى برجه العاجي».

ازداد شعور هيلين بالضيق والانقباض، فحاولت الهاء نفسها بالبحث عن حقيبتها ومنديلها... وبالقاء نظرة أخيرة على المرآة. وعرضت عليها نورين استعمال عطرها الذي تفخر به، فرفضته هيلين قائلة:

«لا، شكراً. فقد استخدمت عطري المعتاد».

هزت نورين كتفيها مرة اخرى، وتوجهت نحو النافذة وهي تقول:

«لا داعي لهذا التصرف الجاف والرافض. فاصطياد الازواج هو المقبّلات الوحيدة في هذه الجزيرة، كما ستكتشفين بنفسك اذا قررت البقاء هنا. ولكن بالطبع اذا كنت تفضلين حياة عادية وخالية من الاثارة والتشويق، فهذا شأنك. ها قد وصلت السيارة».

ثم استدارت نحو هيلين وقالت لها بلهجة ساخرة:

«انها الحدث الرئيسي لهذا العام. تحيين الابنة ثم تحيين الوالد. اسرعي يا عزيزتي، فالرجل المدمّر جستن فالمونت ينتظرك... شخصياً».

فتح لها جستن باب السيارة بعد ان رحّب بها بكلمات تقليدية، وأخذ منها حقيبتها المصنوعة من القش ليضعها على المقعد الخلفي. وبمجرد جلوسها قربه، بدأت أصداء الكلمات التي قذفتها نورين قبل لحظات تتردد في رأسها وتقلقها. هل من الضروري او من الصواب فعلاً اهداء الصندوق الموسيقي الصغير لجولييت؟ وماذا سيكون تفكيره عندما تهدي ابنته شيئاً ما وهي لا تكاد تعرفها! أليس من الافضل مثلاً ان تتناسى الحقيبة في السيارة، او ان... آه منك يا نورين ومن ملاحظاتك المثيرة للشكوك. فالذي بدأ كشعور عفوي من العاطفة الحقيقية تجاه طفلة

صغيرة، حوّرته الآن تلك الملاحظات الى امر مختلف تماماً. ولكن، ماذا لو كانت نورين صائبة في تحليلها؟

وفجأة انعطفت السيارة بشكل حاد نحو طريق فرعي، فمالت هيلين رغماً عنها نحو اليسار وارتطمت بجستن. الا انها سرعان ما امسكت بحافة الواجهة الجلدية وعادت الى الوضع السابق. فسمعت جستن يتمتم:

«عذراً، انني انسى دائماً ان الانسان الذي يجلس الى جانبي معرّض لمثل هذا الحادث، اذ ليست لديه ميزة التمسّك بالمقود!»

تجاهلت اعتذاره تماماً، وظلت صامتة لبعض الوقت تحدق في الاشجار الموجودة على الجانب الأيمن للطريق، وهي تختفي الواحدة تلو الاخرى. وبعد لحظات طويلة شعرت هيلين بأن عليها واجب التفوه بشيء ما، فلم تجد سوى كلمات قليلة تسأل بها عن جولييت. فأجابها جستن:

«أفضل، على ما اعتقد. ولكني اخشى ان تكون قد بدأت تضجر من قلة النشاط والحركة... وربما من وجودها معي».

وعاد القلق يساور ذهن هيلين بالنسبة الى هدية جولييت. وقبل ان تصل الى اي قرار نهائي بذلك الخصوص، شعرت بوقوف السيارة فرفعت رأسها لتلقي النظرة الاولى على منزل جولييت، الفيللا ميموزا.

«إنها فيللا جميلة جداً وطرازها يختلف الى حد كبير عن غيرها».

«شكراً يا هيلين. لقد بناها رجل فرنسي قبل حوالى ربع قرن عندما كانت جزيرة سلمندر مستعمرة فرنسية. تفضلي بالدخول، فجولييت بانتظارنا».

دخلت هيلين قاعة كبيرة تحمل جدرانها الأربعة عدداً كبيراً من اللوحات الزيتية الرائعة لفنانين مشهورين. وفيما كانت تتأمل تلك اللوحات، سمعت جستن يسألها:

«ما رأيك الآن بكأس من الشراب البارد؟ ام انك تفضلينه في الحديقة مع جولييت؟»

ترددت هيلين قليلاً، فسارع فالمونت الى توجيه السؤال الثاني:

«هل تحبين شرابك مع الثلج ام بدونه؟»

«مع الثلج، لا بل مع كثير من الثلج، شكراً».

ضغط جستن زراً صغيراً ثم فتح خزانة من الخشب المحفور وأخرج منها

سطل الثلج المطلي بالفضة وأعطاه الى الخادم الذي دخل لتوه.
«رجاء يا طوم، احضر لنا كمية جديدة من قطع الثلج وكأسين من الشراب الخاص للآنسة وجولييت».
ثم حوّل نظره نحو هيلين قائلاً:
«اني افكر جدّياً في الانضمام اليكما قليلاً. طوم يحضّر مشروباً منعشاً تشرب منه ابنتي كميات كبيرة. تفضلي، من هنا».
وفي اجمل زوايا الحديقة، كانت جولييت مستلقية على احد المقاعد وقربها خادمة سمينة تخيط بعض الستائر. وما ان شاهدت هيلين حتى هرعت لملاقاتها قائلة:
«اعتقدت انك لن تأتي ابداً. ثم ان أبي لم تسمح لي بانتظارك خارج الفيللا».
وبعد ان تبادلت جولييت وأبي الاتهامات المرحة حول تصرفات الشيطانة الصغيرة وتقيّد الحاضنة الحرفي بالتعليمات الصادرة اليها، قبّلتها أبي بحنان طالبة منها التصرف بطريقة لائقة وتوجهت الى داخل المنزل. وفجأة تحولت جولييت نحو هيلين قائلة لها:
«لم تذكري لي ابداً انك كنت راقصة باليه، وأنك اتيت الى سلمندر نتيجة لسقوطك عن دراجة هوائية وعدم قدرتك على الرقص بعد ذلك الحادث. هل هذا صحيح؟ هل رقصت حقاً على خشبات المسارح؟»
نهرها والدها مؤنباً، فاعتذرت منه قائلة:
«اني آسفة. لقد نسيت. ولكن أردت فقط أن...»
ولما لاحظت هيلين ان جولييت توقفت عن اتمام جملتها نتيجة لتلك النظرة القاسية من والدها، تدخلت بتهذيب وقالت:
«لا، ارجوك. دعها تسأل، فلست متضايقة من الاجابة».
ثم التفتت نحو جولييت وتابعت حديثها:
«نعم يا عزيزتي، لقد رقصت على خشبة مسرح. إلاّ انني لم اكن راقصة باليه بالمعنى الصحيح. كنت قد بدأت لتوّي بتقديم وصلات صغيرة بمفردي، وكان يحدوني امل كبير في امكانية وصولي يوماً ما، اذا اجتهدت كفاية، الى مرتبة الراقصات الرئيسيات».
«ولكن لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟»

ابتسمت هيلين وقالت:
«كنت اشعر بتعاسة فائقة يا حبيبتي. ولو بدأت في الحديث عن مشكلتي آنذاك لكنت جعلت من نفسي سخرية أمام الناس الموجودين في الطائرة».
تأثرت جوليت كثيراً ودمعت عيناها، ثم قالت لهيلين بحنان:
«ولكنك ستعودين الى المسرح عندما تتحسن رجلك، اليس كذلك؟».
«لا... لا اعتقد ذلك. لأنني...»
تدخّل جستن فجأة عندما شعر بان هيلين تحاول جاهدة السيطرة على مشاعرها، وقال لابنته:
«انهضي قليلاً يا جولييت، لأنني اريد تلك الطاولة الموجودة وراء الكنبة».
الّا ان هيلين كانت قد احضرت طاولة اخرى فيها وصل طوم ومعه المرطبات. وقد نسيت جولييت موضوع الرقص واهتمامها به واخذت كوب العصير وبدأت تشرب. وما هي الا لحظات حتى عادت الى الحديث:
«ارجو الا اتقيّأ هذا الشراب. فجسمي بحاجة اليه كثيراً بعد ان تقيأت اربع مرات نهار الجمعة ومرتين...»
قطّب جستن حاجبيه وقال لطفلته الصغيرة:
«لا تتحفينا بهذه التفاصيل، ارجوك. الأفضل ان تغيّري الموضوع مرة اخرى».
تنهدت جولييت وردت عليه قائلة:
«أوه، حسناً. كم اتمنى ان اكون شابة كبيرة. فالكبار يتحدثون دائماً عن امراضهم ولا احد يطلب منهم ان يخرسوا. عمّ يجب ان اتحدث يا ابي؟»
نظر اليها بحنان وقال لها مازحاً:
«عن لا شيء، لحين الانتهاء من شرب العصير. انه طلب ظالم، اليس كذلك؟»
رفع جستن كأسه الى شفتيه وافرغ بقية شرابه دفعة واحدة. ثم طبع قبلة حنونة على رأس جولييت قائلاً:
«سأغادركما الان حتى تتمكني من اطلاع هيلين على كل ما يدور في رأسك من اراء وافكار. ولكن لا تلوميني اذا ضجرت منك هيلين كثيراً

وفرّت هاربة».

ضحك الجميع لتلك النكتة الظريفة واندفعت جولييت لمعانقة والدها والتمني له بالتوفيق. وقبل ان يذهب، تطلع جستن بهيلين وقال لها بلهجة مهذبة، مبتسماً:

«ألي لن تكون بعيدة. ففي حال احتياجك لأي شيء ارجوك الا تترددي في مناداتها وابلاغها بما تريدين».

تأملته هيلين ملياً وهو يغادر ذلك الركن من الحديقة وتذكرت صفة المدمّر التي اطلقتها نورين على جستن فالمونت. نعم، يمكنه ان يكون مدمراً فيما لو اختار استغلال ذلك السحر وتلك الجاذبية للفوز بقلوب النساء الضعيفة والراغبة. ولكنها لماذا تفكّر به! فهي هنا لتسلية صديقتها الصغيرة.

أمضت جولييت وقتاً ممتعاً مع هيلين، مركّزة معظم اهتمامها على العلبة الموسيقية التي افرحتها كثيراً. وظلت الفتاتان تمرحان وتلعبان فترة طويلة الى ان جاءت ألي ودعتهما لتناول الشاي مع السيد فالمونت على الشرفة. وقد اعربت جولييت عن رغبتها في تناول الطعام لأنها جائعة، فاجابتها ألي:

«سأحضر لك فوراً بيضة مخفوقة مع الحليب والسكر. هذه هي أوامر الطبيب، ولن تأكلي اي شيء آخر قبل حضوره غداً صباحاً».

احتجت الفتاة بانزعاج قائلة:

«ولكنني اكاد اموت جوعاً. لم آكل شيئاً منذ ثلاثة ايام. ارجوك يا ألي عطني واحدة من قطع الحلوى هذه».

تنهدت الخادمة الحنونة ثم توجهت نظراتهن جميعاً نحو جستن، الذي نال مستسلماً:

«حسناً واحدة فقط، واياك ان يحدث لك ما حدث يوم الجمعة».

لمعت عينا جولييت فرحاً ومدت يدها الى طبق الحلوى لتختار اكبر احدة فيه. ثم تطلعت الى والدها وقالت له مازحة:

«ولماذا يا ابي تذكّرنا بتفاصيل مزعجة ونحن نجلس الى المائدة؟»

ضحك جستن وربّت على كتف ابنته بحنان قائلاً:

«لقد سجّلت هدفاً سريعاً وسهلاً في مرمى والدك».

لاحظت هيلين التعاطف والتوافق المتبادلين بين جولييت وأبيها. ولكنها

شعرت في الوقت ذاته بأن الفتاة الصغيرة تعرف حدودها بالنسبة الى الاندفاع في تصرفاتها مع والدها. وكان الأمر واضحاً عندما توقفت فجأة عن الاسترسال في حماستها وتنذّرها بمجرد ان سمعته يقول لها بهدوء، ولكن بلهجة تحذيرية جادة:

«جولييت، هذا يكفي».

بعد شرب الشاي قررت هيلين وجولييت القيام بنزهة على الشاطىء. فلبست جولييت كنزة من الصوف الناعم تحسباً لبرودة المساء. واخذت الفتاتان تنعمان النظر بمغيب الشمس وانعكاس الاضواء على سطح الماء. وتأملت هيلين تلك المناظر الرائعة التي تفيض بالدفء والحنان. وشعرت لأول مرة منذ وصولها الى سلمندر بنوع من الطمأنينة وراحة البال. لدى عودتهما الى الفيلا كانت جولييت صامتة تماماً وقد بدا عليها التعب والارهاق، ذلك ان مرضها قد اثر عليها الى حد كبير. ولهذا لم تعترض مطلقاً عندما اخذتها ألي الى غرفة النوم لتبديل ثيابها ووضعها في السرير.

ومع ذهاب جولييت الى غرفة نومها، اختفى من افكار هيلين ذلك الشعور الوجيز بالسكينة. ومرة اخرى عاد يتملكها كالمعتاد شعور بالحذر والاحتراز. وظلت هيلين فترة قصيرة وحدها في تلك القاعة الكبيرة، فشعرت بان هناك خطأ ما في وضعها. وهو شعور الانسان الزائر وليس الضيف اذا تركه اصحاب البيت وحده. تطلعت حولها بنظرات شاردة واخذت تتساءل ما اذا كان جستن فالمونت سيوصلها بسيارته ام انه سيدعها تذهب بمفردها. وذكّرت هيلين نفسها بان مكان اقامتها لا يبعد اكثر من عشر دقائق تقريباً اذا سارت سيراً عادياً وطبيعياً. وارادت هيلين ان تلهي نفسها عن هذه الافكار فأخذت تستعيد في ذهنها تفاصيل اللقاء مع جولييت ووالدها جستن. وفجأة تذكّرت انها تركت حقيبتها القصبية في اطراف الحديقة حيث كانت تجلس مع صديقتها الصغيرة. فتحت الباب الزجاجي المطل على الحديقة وذهبت لاحضارها. لدى وصولها تبين لها ان المكان قد اعيد ترتيبه وتنظيفه وان حقيبتها ليست هناك. عادت هيلين الى المنزل فوجدت الباب الزجاجي مقفلاً من الداخل. وعندما ارادت الذهاب من الجهة الاخرى كادت ان تصطدم بجستن على الزاوية الشمالية. وقال فالمونت:

«لقد استغربت ان اراك آتية من هنا للحظة وجيزة اعتقدت انك ذهبت الى منزلك».

وبدأت هيلين تحاول التقاط انفاسها لتشرح له ما حدث، ولكنه قال لها على عجل:

«اني آسف جداً. كان عليّ اجراء مكالمة هاتفية ضرورية، ومما لا شك فيه ان ألي قد احضرت حقيبتك من الخارج».

ولما وصلا الى القاعة، ابتسم جستن وقال:

«اقفال الباب الزجاجي من الداخل ربما بدا تصرفاً غير لائق يقوم به انسان غير مضياف. ولكن الحقيقة هي غير ذلك تماماً. فالخادم طوم معتاد في مثل هذا الوقت من كل يوم على اقفال جميع الابواب والنوافذ لمنع الحشرات الاستوائية المؤذية من دخول المنزل».

ردت عليه هيلين بكل تهذيب:

«لا بأس، فلا داعي للاعتذار».

«كيف لا، خاصة انك اعطيت وقتك كاملاً طوال بعد الظهر لتسلية ابنتي. كانت خطوة لطيفة جداً منك، وانا اقدّر لك هذه الخدمة الرائعة. وجودك هنا اسعد جولييت الى حد كبير».

ثم توجه الى الخزانة الخشبية وقال لهيلين:

«ماذا تشربين؟»

«قليلاً من عصير البرتقال من فضلك».

واخذت هيلين تراقب اسلوبه المميز وهو يصب العصير في كأسين من الكريستال الخالص. وبعد ان اعطاها شرابها جلس قبالتها ثم قال لها بكثير من الجدّية والتفكير العميق:

«اتدرين انني افكر ملياً اذا كان من الخطأ او الصواب احضار جولييت الى هنا. لم يمض وقت طويل على وجودها هنا وقد بدأت اواجه بعض المشاكل».

وبدون ان تدري ماهية رد الفعل المتوقع منها، قالت له:

«أتعني مسألة الاعتناء بها؟»

«لا معاذ الله. ولكن بكل بساطة لم تكن لدي ادنى فكرة عن الوقت الذي يجب ان اكرّسه لها. ووقتي مع الأسف ضيق جداً. وقد احزنني بوجه

خاص انني لم اتمكن من تخصيص وقت اطول لها اثناء مرضها. ومما ارعبني الى حد ما التفكير بما سأفعله اذا اصيبت جولييت لا سمح الله بمرض اقوى و....».

قاطعته هيلين قائلة:

«هناك شخص على استعداد دائم للقيام بهذه المهمة».

وتطلعت اليه هيلين بتفحّص فبدا لها رجلاً قادراً تماماً على معالجة اي من المشاكل التي قد تواجهه، بما في ذلك مرض طفلة صغيرة. وكأن جستن لم يسمع ما قالته هيلين فاضاف فجأة:

«كذلك لم تكن خطوة جيدة اخراجها من مدرستها في لندن. فمعظم الأوروبيين هنا يفكرون جدياً بارسال اولادهم الى العاصمة البريطانية، وخاصة عندما يبلغون سن جولييت».

ذكّرته هيلين بان جولييت كانت متضايقة جداً بسبب بعدها عنه، وبأنها كانت تتحرّق للقائه. تنهّد جستن من اعماق صدره وقال:

«هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني اتخطى جميع الاعتبارات، بما فيها العملية والعلمية».

«بلا شك توجد هنا مدرسة لتعليم جولييت، أليس كذلك؟»

«نعم، هناك ثلاث مدارس. ولكنني اعتقد ان اياً منها لا تناسب جولييت بالشكل الذي اريده لها».

شرب جستن قليلاً من العصير ثم عادت اليه ابتسامته فأضاف:

«اعتقد ان عليها الذهاب الى مدرسة الآنستين (ميم). وهاتان الآنستان اللتان ستتعرفين عليهما عاجلا ام آجلا، هما الانسة مايبل والآنسة ميلدريد. انهما سيدتان مسنتان لطيفتان كانتا تدرسان في الهند قبل استقلالها عن بريطانيا. وهما الآن تعيشان هنا وليست لهما اية رغبة في العودة الى انكلترا. واعتقد ان دخلهما من تعليم ابناء العائلات الاوروبية في سلمندر يكفيهما للعيش بمستوى لائق. بالطبع ان اسلوبهما في التعليم هو قديم جداً يتلخص ببضعة مواضيع هي تاريخ الامبراطورية والاخلاقيات والاشغال اليدوية وكيفية التصرف بتهذيب اثناء الحفلة السنوية في المبنى الحكومي».

كانت هيلين تستمع اليه بكل رصانة ثم قالت:

«يبدو انهما سيدتان لطيفتان».

«نعم، ولكن لماذا اضجرك هكذا بمواضيع لا تهمك! اخبريني كيف وجدت سلمندر؟»

«اعتقد انها جميلة جداً وانا اتطلع الى اكتشافها بطريقة افضل».

صمت جستن للحظة والقى نظرة مطولة على اللوحة الزيتية الرائعة المعلقة على الحائط الجنوبي، ثم تحولت انظاره الى الصندوق الموسيقي المهدى من هيلين لجولييت، والتي وضعته ابنته على طاولة صينية جذابة. مدّ جستن يده باتجاه الطاولة واحضر الصندوق الخشبي وفتح الغطاء بكل عناية واهتمام ليشاهد راقصة الباليه الصغيرة ترقص على انغام لحن مشهور.

ظل جستن صامتاً تماماً طوال فترة الاغنية القصيرة يتأمل بجدية الراقصة الصغيرة. وبدون ان يقفل الغطاء لانزال الراقصة الى قلب الصندوق، اعاده الى مكانه على الطاولة وقال لهيلين:

«هذا الصندوق كان لك، اليس كذلك؟»

أجابته بكلمة «نعم» فقط اذ انها غصت ببقية الجملة.

فقال لها والد جولييت:

«كنت اتصور ذلك. ومما لا شك فيه انه كان يعني لك الامر الكثير. فهل انت متأكدة من انك تريدين التخلي عنه لجولييت؟».

«نعم، بالطبع. ولو لم يكن هذا شعوري منذ البداية لما قدمته لها. في اي حال، فهذا الصندوق لم يعد يعني اي شيء بالنسبة الي».

تردد جستن لحظة، ثم عادت فجأة البرودة وعدم الاهتمام الى قسمات وجهه وقال لها:

«أنا اشكرك على قبولك الدعوة لزيارتنا، ويسرني الآن ان اوصلك بسيارتي الى منزلك».

خلال دقيقة او اقل كان جستن يفتح الباب الامامي لهيلين ثم يصعد من الناحية الاخرى ويتجه بسيارته نحو بيت ماريز.

٤- الاوزة العرجاء

أعاقت ازمة محلية بسيطة الأعمال اليومية المعتادة التي لم تكن طبيعية تماماً حتى في أفضل الأوقات. فالخادمة لم تحضر صباح ذلك اليوم. وماريز كانت مصابة باحدى نوبات الصداع النصفي، مما جعلها تترك فطورها وتأخذ المسكّنات الخاصة بتلك الأوجاع وتنسحب الى غرفتها. كما اعلنت نورين انها منشغلة في استقبال بعض الاشخاص. وقد اوضحت طبيعة عملها لهيلين قائلة:

«نسيت ان اخبرك. هناك باخرة سياحية ستصل الى الجزيرة اليوم. فسلمندر تقع على خط احدى شركات الملاحة البحرية الضخمة، وعائلة سندانا تهتم بالرحلات الداخلية. والعام المقبل ستهتم بزبائن الرحلات الجماعية الكبيرة. وللمعلومات فان وظيفتي هي استقبال المجموعات التي تود مشاهدة جزيرتنا والتأكد من ان جميع المبالغ التي ستنفق هنا سوف تذهب الى جيوب ابناء العائلة».

فكّرت هيلين قليلا بهذه العائلة الغنية التي يبدو ان لها حصة في كل مشروع تجاري يقام على الجزيرة. فهم يمتلكون النادي الذي يديره كيت مانتون، وهم أصحاب المتجر الاوروبي الرئيسي وكذلك الفندق الراقي الوحيد الذي تفخر به جزيرة سلمندر. اضافة الى ذلك فهم يمتلكون جزءاً كبيرا من المقاطعة المؤجّرة الى شركة انتاج السكّر. وتوقفت هيلين قليلا عن التفكير وقالت لنورين:

«يبدو انها وظيفة تثير الاهتمام».

القت نورين نظرة اخيرة على نفسها في المرآة وقالت:

«انها وظيفة تكاد تقتلني من الضجر احيانا. ولكنني لا اريد تركها حتى

اعرف بالضبط النتيجة التي سأتوصل اليها مع راي سندانا. وعندها تختلف الأمور بشكل كلي، لأنني لن اخشى بعد ذلك كيفية الحصول على المال والمصدر الذي سيأتي منه».

ودهشت هيلين لمسحة المرارة في صوت نورين وسألتها:

«وهل ستتزوجين راي؟»

«بمجرد ان يطلبني للزواج».

صمتت هيلين لفترة ما ثم عادت الى السؤال:

«وهل تحبينه؟»

عاد الى نورين هدوء اعصابها وبرودتها وأجابت:

«الردّ يتوقف على ما تعنيه بكلمة حب. لنقل ان الظروف شاءت بأن يكون لديه ما اريده وأصبو اليه، وان يكون لديّ ما يريده ويبتغيه. وعليه فمن المؤكد ان العلاقة بيننا ستكون مرضية وحسنة».

وابتسمت نورين ثم حملت حقيبتها وودّعت هيلين قائلة:

«آسفة يا عزيزتي لتركك وحدك تعالجين امورك بمفردك».

وعندما ذهبت نورين ظلت هيلين واقفة بدون حراك تنظر الى الحديقة التي تعمّها الفوضى، وتحلّل التفكير المادي وغير المنطقي لنورين بالنسبة الى موضوع بالغ الأهمية كالزواج، مع ان الموقف لم يكن مستغرباً من ابنة زوجة ابيها. هزت هيلين برأسها أسفاً على نورين التي تعتقد ان مال الرجل هو الدافع الوحيد للفتاة المقبلة على الزواج. ومع انها ليست الا في التاسعة عشرة من عمرها ونورين لا تصغرها الا بسنة واحدة فقد شعرت انها تسبقها بكثير من السنين والنضوج والجدية.

وقررت هيلين اعداد فنجان من الشاي لماريز فوضعت الابريق على النار وانتظرت غليان الماء. وخلال تلك الفترة الوجيزة اخذت تحلل فيللا اوريليا ومالكيها. فقد شعرت منذ البداية تقريباً بأن الأوضاع في ذلك المنزل ليست جيدة كما يجب. فالاعمال وقلة الترتيب ليست وحدها سبب الوضع الشاذ القائم. فهناك كثير من الأمور توحي بوجود نوع من الفقر والحرمان. بعض الستائر في الجانب الخلفي ممزقة، والحائط الشمالي بحاجة الى صيانة، ووجه ماريز يمتعض كلما استلمت فاتورة صغيرة او كبيرة، وليس هناك اي خادم للاعتناء بالحديقة.

صفر الابريق فقطع عليها تفكيرها واسترسالها. أعدّت الشاي ووضعت الى جانب الفنجان صحناً عليه ثلاث قطع صغيرة من الحلوى وتوجهت الى غرفة ماريز. وتذكرت هيلين بأسى ان والدها خلّف وراءه ممتلكات كثيرة كما انه لم تكن هناك في رسائله لها اي دلائل على وجود مشاكل مادية او مالية. ولكن انّى لها ان تعرف؟ فقد تولّت امر نفسها خلال السنوات الثلاث الماضية، اي منذ الانتهاء من دراستها لرقص الباليه، وبالتالي فانها لم تعر اي اهتمام لهذه المسألة. وكانت راضية بأن والدها بدا مسروراً جداً مع الأرملة الشابة التي تزوجها قبل ست سنوات. ومع ذلك فانه لا يبدو على ماريز ونورين اي ضيق مادي من حيث الملابس ومستحضرات التجميل. وقبل ان تدق على باب ماريز لتعطيها الشاي ومن ثم تتصل بمنزل فالمونت لتسأل عن جولييت، لاحظت هيلين ان عليها التحدث جدياً مع ماريز، وفي اقرب وقت ممكن، حول امكانية حصولها على وظيفة ما في سلمنذر. فمدخراتها تكفيها في الوقت الحاضر الا انها لن تدوم الى ما لا نهاية.

تبين لهيلين لدى اجراء المكالمة الهاتفية ان جولييت استعادت عافيتها تماما. وقالت ألي ان جولييت ووالدها يتناولان طعام الغداء مع المفوض العام وولديه. اذاً فقد وجدت جولييت اشخاصاً اقرب الى عمرها من هيلين. وعلى الرغم من ان هذا الأمر طبيعي ومتوقع فقد استغربت هيلين الغصّة التي شعرت بها.

وللترويح عن نفسها رأت ان تقوم ببعض الأعمال المنزلية وخاصة فيما يتعلق بتنظيف المطبخ وترتيبه. وفي اليوم التالي قالت لها ماريز عندما شاهدت النتائج وأبدت اعجابها بها.

«اتحبين الأعمال البيتية الى هذا الحد؟ لنترك التنظيف للخادمة عندما تعود الى عملها، فالطقس حار جداً بالنسبة اليك».

ابتسمت نورين ابتسامة ساخرة وقالت:

«الخادمة لن تعود الى عملها قبل ان يشفى زوجها من مرضه».

هزت ماريز رأسها وكأنها تتراجع عما قالته ثم اضافت:

«ومع ذلك فان مجرد مراقبتك وأنت تعملين يشعرني بالتعب والارهاق. ان حيويتك ونشاطك مذهلان».

نعم كانت هيلين مفعمة بالنشاط. فالطقس الحار لم يزعجها البتة. واكثر فأكثر اخذت تشعر بأن الكسل يضيّق عليها انفاسها، وان عليها القيام بعمل ما. فهي لن تمضي حياتها خاملة وبدون اي عمل وانتاج كما هي الحال مع زوجة ابيها.

وعلى الرغم من اعتراضات ماريز، بدأت هيلين بقطع الاشواك والنباتات البرية التي تكاد تغرق الحديقة وتخفي معالمها.

ظهرت نورين على شرفة المنزل ونادت على هيلين قائلة:

«لك مكالمة هاتفية. وهي بالمناسبة من صديقتك الصغيرة».

جولييت! شعرت هيلين فجأة بموجة من السعادة والسرور وهرعت الى الداخل وقد نسيت استياءها وانزعاجها. الا ان الابتسامة تجمّدت على شفتيها عندما سمعت الصوت الخائف والحزين يقول:

«اوه يا هيلين كم انا سعيدة بأنك في المنزل. لقد تهت ولا اعرف كيف اعود. هل بامكانك. . .».

«تهت؟ ماذا حدث يا جولييت؟ هل انت بخير؟»

«نعم ولكني ضللت الطريق الى البيت، ووالدي. . .».

«اين انت؟ وماذا حدث لك بالضبط؟»

«انا هنا وقد نسيت الموعد الذي يمر به الاوتوبيس. اني خائفة يا هيلين لأن والدي يغضب كثيراً ان لم يجدني في البيت عندما. . .».

قاطعتها هيلين بلهجة صارمة لتحدّ من مخاوفها:

«اين انت بالضبط؟ يجب ان اعرف بالتحديد مكان وجودك».

«اندانو، منطقة انتاج السكّر».

«اندانو! ولكنها تقع على الجانب الآخر من الجزيرة! المهم. . .».

«لقد نسيت ان الاوتوبيس يأتي من هنا ولكنه يعود من طريق آخر، ولا اظن ان بامكاني السير هذه المسافة الطويلة».

فهمت هيلين تماماً المشكلة التي وقعت فيها جولييت. فلسبب ما اتت الطفلة الصغيرة الى اندانو، التي تبعد عن منزل والدها حوالى خمسة وعشرين كيلومتراً، ثم نسيت مواعيد الاوتوبيس ومسارها الصحيح. واقرب موعد للعودة بطريق جولييت لن يكون قبل الثامنة مساء. واذا تأخرت حتى ذلك الحين فان جستن فالمونت سيجنّ قلقاً على ابنته.

«هيلين ارجوك، كيف سأعود الى البيت قبل وصول والدي»؟
ثم أضافت قائلة بصوت اصبح اقرب الى الهمس منه الى الحديث العادي:
«هل هناك اي طريقة لمساعدتي؟ انه سيغضب كثيراً وربما انزل بي عقاباً صارماً».
«لا ادري كيف... مهلا يا حبيبتي لحظة لأفكّر بطريقة ما».
وتساءلت هيلين بمرارة وحزن عن افضل وسيلة لحل هذه المشكلة. ترى هل بالامكان الحصول على سيارة اجرة في هذا الوقت! ام ان... وقطعت عليها نورين تفكيرها لتسألها عما يزعجها ويجعلها عابسة وحزينة، فقالت لها هيلين ان جولييت موجودة في اندانو ولا تعرف كيف تعود. ضحكت نورين بسخرية وقالت:
«ماذا تقولين؟ الا يجيد الوالد الحنون اعادتها الى البيت، ام ان سيارته ليست كبيرة وفخمة بما يكفي!».
«لقد حاولت ان تلعب كالكبار الذين يعرفون طريقهم بمفردهم وهي الآن تكاد تموت خوفاً وهلعاً. بالله عليك يا نورين ألا تعرفين سائق سيارة اجرة في اندانو يمكننا الاتصال به والطلب منه لاحضارها؟».
«انت لست بحاجة الى سيارة اجرة او الى الاتصال بأحد».
قالت نورين جملتها هذه بحنان وهي تضع مفاتيح سيارتها امام هيلين التي قبّلتها بامتنان ومحبة قبل ان تقول لجولييت بلهفة:
«سنأتي اليك حالا، فأين ستكونين بالضبط»؟
«سأقف على الجسر. لا، انه قريب من منطقة معامل السكّر واذا صدف ان مرّ والدي من هنا...».
توقفت جولييت لحظة ثم تابعت حديثها:
«ساكون قرب الشاطىء، وبالتحديد حيث توجد الزوارق والقوارب. ارجوك اسرعي يا هيلين».
وبعد ان وعدتها بذلك وأوصتها بالا تذهب بعيداً، نظرت هيلين الى نورين وقالت لها:
«هيا بنا، فهي طفلة صغيرة ومن المؤكد انها خائفة حقاً».
«آسفة يا حبيبتي، فعملية الانقاذ هي مهمتك بمفردك. وقتي لا يسمح

لي. راي سيتصل بي حوالى الثامنة لنذهب الى حفلة عشاء في الهواء الطلق. واذا ذهبت معك فقد لا اعود قبل الثامنة. ثم، انت تعرفين قيادة السيارات، أليس كذلك؟»

«نعم قليلا، ولكن. . . ولكن تعلمت قيادة سيارة ليزا الصغيرة في العام الماضي. اما سيارتكم الكبيرة فان قيادتها قد تكون صعبة ومختلفة».

«اذا تعلمت على قيادة احدى السيارات فلن تصعب عليك سيارة اخرى».

ثم ضحكت نورين وقالت لها بمرح وتشجيع:

«لا تقلقي، فليس في جزيرتنا مواقف معيّنة للسيارات او اشارات ضوئية او تقاطع طريق خطر. اتكلي على الله، وحاولي الانتباه قدر الامكان الى المشاة».

صعدت هيلين الى السيارة بعدما اعطتها نورين بعض التعليمات والتوجيهات. وبصعوبة تمكنت هيلين من اخراج السيارة الكبيرة عبر البوابة الخارجية لتنطلق بها ببطء وحذر بالغين. وكانت كلما قطعت منعطفاً قاسياً او مفترق طريق مزعجاً تتنهّد مرتاحة ومسرورة وكأنها انهت خطوة رئيسية في مهمة خطرة.

وأخيراً، وبعد جهد وعناء، وصلت هيلين الى المكان المتفق عليه فأوقفت السيارة وبدأت تجول بنظرها في تلك المنطقة النائية بحثاً عن جولييت. وما هي الا لحظات حتى قفزت الطفلة الصغيرة من احد جانبي الطريق والقت بنفسها بين ذراعي هيلين باكية وقائلة بلهفة:

«شكراً على حضورك يا هيلين. لقد ظننت انك لن تأتي ابداً. كم الساعة الآن»؟

«انها. . .».

وتطلعت هيلين لا شعورياً الى معصمها لتتذكر فجأة انها نسيت ساعتها في البيت.

«انها تقارب السادسة والنصف على ما اعتقد».

ذعرت جولييت وقالت بخوف:

«سيصل أبي قبلي الى البيت. أنا متأكدة من ذلك. وأبي سوف. . .».

اوقفتها هيلين عن الحديث واخذتها بيدها الى السيارة قائلة لها بصرامة

وتأنيب:

«لقد ارتكبت غلطة كبيرة لابتعادك هذه المسافة الطويلة عن المنزل، خاصة أن والدك منعك من التجوّل بعيداً اذا كنت بمفردك».

شعرت الطفلة الصغيرة بالخجل وقالت بلهجة الاعتذار:

«اعرف ذلك. الا انه لم يكن لدي ما افعله اليوم. وأبي لا يسمح لي بالسباحة وحدي. وقد ضجرت من اللعب بمفردي فأقنعت نفسي بركوب الاوتوبيس والبقاء فيه لحين عودته الى المحطة القريبة من البيت».

تأثرت هيلين لما تواجهه صديقتها الصغيرة. فهي تشعر بالوحدة والسأم، ووالدها يغيب عنها مضطراً معظم النهار. فمن المؤكد انها تصبح متململة وحزينة في الوقت نفسه.

«يقول ابي انه سيكون مسروراً عندما اعود الى المدرسة. الا ان ذلك لن يتم قبل اسبوعين من الآن، ولا اعرف كيف سأشعر خلال هذه الفترة».

لم يصدر عن هيلين اي ردّ فعل على ما قالته جولييت اذ انها كانت تتخيل انواع القصاص التي قد يمارسها فالمونت على ابنته الصغيرة اذا علم بما قامت به. ومع انها مقتنعة تماماً بأنه يحب جولييت الى درجة كبيرة، فهي شبه متأكدة من انه قد يضربها اذا قرر ان ذلك هو القصاص الصحيح. مسكينة جولييت! لقد عانت كثيراً لتنجح في المجيء الى ابيها وهي ترى الآن بعد بضعة ايام فقط ان الأمور ليست على الاطلاق كما تخيّلتها وأرادتها.

فجأة، سمعت صوتاً قوياً وتحوّلت السيارة قسراً الى جانب الطريق. يا لتعاستهما، لقد ثقب احد الاطارات. نزلت هيلين وجولييت من السيارة وفتحتا الصندوق لجلب الاطار الاضافي والعدّة الخاصة بتركيبه.

شعرت هيلين بالتعاسة لأنها لا تعرف شيئا عن ابدال اطار بآخر وكذلك لأن اي تأخير اضافي سيزيد من مشكلة جولييت. مضت عشر دقائق قبل ان تتمكن من نزع غطاء الاطار ووضع الرافعة في مكانها الصحيح. وبعد ربع ساعة من ذلك تمكنت من سحب الاطار المثقوب. وعندما تساءلت جولييت للمرة الخامسة عن الوقت، صرخت بها هيلين باستياء:

«بالله عليك يا جولييت، الا ترين انني اعمل قدر استطاعتي وأكثر».

اعتذرت منها الصبية الصغيرة. وقالت لها بتأثر ان ثيابها بدأت تتسخ، وتمنّت لو كان بامكانها مدّ يد المساعدة. ولم تكمل جملتها وأخذت تحدّق •

بالسيارة البيضاء الفخمة القادمة نحوهما. استدارت هيلين لتعرف سبب الصمت المفاجىء فشاهدت جستن فالمونت يوقف سيارته على بعد بضعة امتار ويمشي باتجاهما.

«مساء الخير يا أبي. انظر، لقد تعطّلت معنا السيارة».

أجابها والدها بايجاز ثم أشار الى هيلين بالابتعاد وبدأ بتركيب الاطار الأضافي. وخلال دقائق قليلة انتهى جستن من عمله وأزاح جولييت بعصبية ليضع الاطار المثقوب في صندوق السيارة. وفي هذه الاثناء دخلت جولييت السيارة القديمة قائلة لوالدها:

«لقد تجوّلت مع هيلين بالسيارة، واستمتعت كثيراً طوال الوقت».

لم يصدر عن جستن اي تعليق كما انه لم يبدِ على وجهه اي انفعال. واكتفى باقفال الباب الذي صعدت منه ابنته وقفل راجعاً بدون التفوّه بأي كلمة. وتساءلت هيلين بصمت غاضب عن اسباب ردّ فعلها المتأثر من تصرفات فالمونت. فمن الواضح تماما انه لا يستلطفها ولا يهتم بها اطلاقاً. اذن فلا داعي للاهتمام او الانفعال.

انطلقت هيلين بالسيارة القديمة باتجاه منزل فالمونت. وطوال الوقت حافظ جستن على مسافة عادية وراءها. وعندما وصلت السيارتان الى باحة المنزل ونزل الرجل وابنته منهما، تطلع جستن نحو جولييت وقال لها بحدّة:

«جولييت، اشكري هيلين لأنها اخذتك للتنزه».

اطاعت الفتاة الصغيرة والدها الذي صرفها باتجاه ألي، بعد توجيهها كلمة شكر لطيفة لهيلين. ولما ابتعدت جولييت بما فيه الكفاية، اقترب جستن من الآنسة الموجودة داخل السيارة القديمة وقال لها:

«يا آنسة سلفاين أنا اقدّر لك اهتمامك بجولييت وتكريسك وقت فراغك لتسليتها. ولكني افضّل بأن تكون لديك اللياقة الكافية لابلاغي أنا بالذات عندما تقررين ابعادها عن البيت معظم ساعات النهار».

صعقت هيلين لهذا الهجوم القاسي، وللتجني على تصرفاتها وكانت على وشك الرد عليه باللهجة نفسها عندما تذكّرت نظرات التوسّل التي وجهتها جولييت قبل دخولها الى البيت. فاكتفت بالقول:

«انك تصوّر الوضع وكأنني اختطفت جولييت».

«اعتقد ان مدبّرة منزلي وصلت الى هذا الاستنتاج عندما وصلت أنا الى

البيت».
«اصابة أحد الاطارات كانت امراً غير متوقع».
«هذا صحيح، ولكن كان بامكانك ابلاغنا بطريقة ما عن وجهتكما».
«لم تكن لدي النيّة ابداً للتأخر هكذا».
«بالمناسبة، الى اين ذهبتما؟»
سألها جستن بعصبية، فأجابته هيلين ببرودة وغموض:
«هنا وهناك. فأنا لا اعرف بعد جميع مناطق الجزيرة من حيث الاسم والموقع».
«وكذلك جولييت. وهذا سبب آخر لاضافة قليل من المنطق والتعقّل في المرة القادمة».
«بعد كل الذي حدث لا اعتقد انه ستكون هناك مرة قادمة يا سيد فالمونت. الا انه يؤسفني انك اصبت بالقلق. والآن يجب ان اعود فكيف استدير بالسيارة؟».
«لا امكانية للاستدارة هنا، بل عليك الرجوع الى الوراء كما انت».
الرجوع كارثة بالنسبة الى هيلين. ارتبكت، ضغطت على مفتاح المسّاحة عوضاً عن مفتاح النور، ورفعت المرآة بدلا من ان تخفضها. وفي تلك اللحظة تمنّت من صميم قلبها لو انها لم تلتق جولييت او والدها الذي يتعذّر التفاهم معه.
فتح جستن باب السيارة من جهة هيلين وأمرها بالتنحّي قليلا عن مقود السيارة. كانت تلك الخطوة خاتمة الاذلال المشين، وقد أضاف اليها جستن جملة قاسية بعد اخراجه السيارة ونزوله منها:
«في اعتقادي انك بحاجة الى بضعة دروس في قيادة السيارات يا آنسة سلفاين. تصبحين على خير».
شعرت هيلين لدى عودتها الى المنزل بأنه شبه مهجور. فالصالة مظلمة، والصمت مطبق، والحركة معدومة. وعادت الهموم تتراكم في رأسها، واخذت تمشي في تلك القاعة من دون ان تضيئها.
لقد كانت فترة وجيزة تلك التي شعرت فيها بلذة الحصول على سيارة والتنقّل بها لاكتشاف جميع مناطق الجزيرة. وبالطبع، فان جستن فالمونت هو السبب الرئيسي في حملها على عدم اخذ السيارة مرة اخرى، مع انها

كانت تنوي استخدامها عدة مرات لاستكشاف الجزيرة. وللمرة الاولى منذ وصولها الى تلك الجزيرة في المحيط الهندي لم يحدث اي فرق لصالحها. فالتعاسة هي نفسها اينما ذهب الانسان وكيفما توجه.

وتمنت هيلين بحزن لو انها ظلّت في لندن بين اناس يفهمونها، عوضاً عن الهروب من الواقع مهما كان مراً. ولكنها قالت لنفسها بتحسّر ان عالمها هي، اي عالم الباليه، لا يقبل اوزة عرجاء.

وقفت هيلين واخذت تسير في القاعة على غير هدى، الى ان وصلت الى اسماعها نغمات موسيقية جميلة من احدى غرف المنزل. بدأت ترقص وتتمايل على تلك الانغام على الرغم من الألم الذي بدأ يتسرب الى رجلها. تجاهلت اوجاعها وعدم قدرتها على الرقص بدقة ووفق الأصول. فما من احد يراها ترقص الآن وما من احد سيشاهد رقصها مرة اخرى. انتهت القطعة الموسيقية فنزلت على ركبتيها ومدّت يدها الى الأمام تماما كما كانت تفعل في رقصات الباليه.

«رائع، رائع».

كلمة قيلت مكررة بحماس، يرافقها تصفيق حاد، ايقظت هيلين من احلامها واعادتها الى عالم الواقع والحقيقة. كيت مانتون كان يقف على الشرفة ويهم بدخول القاعة وهو يقول:

«ما رأيك بجولة اخرى؟ انك حقاً رائعة».

«انا آسفة، لم اعرف ان احداً يراقبني».

«شاهدتك قبل وصولي الى الباب الزجاجي. بالمناسبة كنت اظن انك غير قادرة بتاتاً على الرقص».

«هذا صحيح، اذ لم اعد قادرة على ممارسة الأدوار التي كنت أقوم بها قبل الحادثة».

ابتسم كيت بشيء من السخرية وقال:

«اوه ذلك النوع التقليدي القديم من الرقص والقفز في الهواء. لا يا هيلين، أنا مهتم اكثر بما شاهدته قبل لحظات».

«أتسمّي هذا رقصاً؟».

برقت عيناه وقال لها مبتسماً، ولكن بلهجة جدّية:

«اعتقد ان بامكاني استخدامك، فهل توافقين على العمل لدي؟»

«لديك؟ ماذا يمكنني ان افعل؟»

«ترقصين، وهل هناك شيء آخر؟ أرجوك يا صغيرتي، لكن اكثر واقعية وذكاء. استعراضان قصيران كل ليلة في النادي. رقصتان كتلك التي قمت بها قبل دقائق ولكن اسرع قليلا. اتغنين؟»

اجابته هيلين بالنفي وهي شاردة الافكار ولا تصدّق انها تسمع ما سمعت. ترقص! وفي ناد ليلي! وبعد امتهانها رقص الباليه الراقي! كلا وألف كلا.

ضحك كيت مانتون لدى سماعه الرفض القاطع ومشاهدته الدهشة والصدمة على وجهها وقال:

«أنا لا أعرض عليك عملا مشيناً. وكما تعلمين يا آنسة، فأنا أدير ملهى رصيناً».

«نعم، اعلم ذلك. أنا، أنا لم أعنِ... ما اقصده هو انني غير قادرة. اضف الى ذلك، ان رجلي تؤلمني كثيراً عندما ارقص».

«فكّري ملياً بالموضوع. يوجد لدي الآن احد المغنين المحليين ولكن الزبائن بدأوا يضجرون. جرّبي المهمة لمدة اسبوعين فقط وبعدها تقررين».

«تقرر ماذا»؟

قالتها ماريز وهي تدخل بحيوية وبشيء من الحشرية. شرح لها مانتون عرضه بايجاز، فبدا عليها اولا التعجب والدهشة ثم التشكك واخيراً السرور.

«لمَ لا يا حبيبتي؟ هذه فرصتك للقيام بعمل ما هنا. جرّبيها».

وعندما قالت لها انها غير قادرة على ذلك اطلاقاً، هزّ كيت كتفيه ببرودة وغادر المنزل بصحبة ماريز. ومع ان هيلين طردت هذه الفكرة كلياً من رأسها، الا ان ماريز فاتحتها بها بمجرد جلوسهما الى طاولة الفطور. وقالت لها:

«لا ادري لماذا ترفضين. انها فرصة رائعة لك يجب ان تفرحي بها».

تدخّلت نورين معترضة على كلام امّها:

«انها غير مسرورة بهذا العرض، وأنا اعتقد انها محقة كل الحق. فكيف ستشعرين وأنت تعرضين نفسك امام جمهور حاشد كل ليلة؟».

نظرت اليها هيلين ممتنة وشاكرة، ومستغربة في الوقت ذاته هذا الموقف غير المتوقع من نورين اذ انها وقفت معها ضد امها.

«هذا صحيح يا ابنتي، ولكن كيت مانتون سيجزل لها العطاء...».

قاطعتها نورين بعصبية وحدّة:

«المال، المال، انه دائما المال. أواه لو كان بامكاننا العيش بدونه».

«اياً كان رأيكما، فأنا لا أزال اعتقد بأن هيلين ستكون سخيفة ان هي اضاعت هذه الفرصة. انها...».

نهضت هيلين بهدوء وانسحبت من الغرفة. فأسلوب الحديث والعرض غير المقبول الذي تقدم به كيت، اعادا اليها فجأة السؤال الذي دأبت على تجنبه: هل هي راغبة حقاً في جعل سلمندر موطنها الدائم، وهل تريد لنفسها ان تسكن بصورة نهائية مع زوجة ابيها؟

سارت نحو الشاطىء، وجلست في ظلال اشجار النخيل، وأخذت تتأمل امواج البحر علّها تحمل لها الجواب الصحيح. هل تبقى في سلمندر ام تعود الى انكلترا؟ ما من انسان يقدر ان يعيش على الذكريات او يبني مستقبلا جديداً على الندم. هل تعود... ام تبقى؟

مضت دقائق قليلة وهيلين سابحة في بحر التأمل والتفكير. وفجأة شاهدت شخصين يسيران على الشاطىء. وقد انحنى الصغير منهما لالتقاط شيء ما، في حين توجه الكبير نحوها. وما هي الا لحظات حتى كان ذلك الرجل، جستن فالمونت، يقف قربها ويقول لها بدون القاء التحية:

«كنت في طريقي الى منزلك للتحدث معك».

نظرت اليه هيلين ولم تتمكن من اخفاء مشاعر السخرية والاحتقار التي عكستها عيناها. الا انها ظلت صامتة، فتابع حديثه قائلا بهدوء:

«لقد سمعت للتو الحقيقة الكاملة عمّا حدث امس. ارجو ان تتقبّلي اعتذاري عن الحكم الخاطىء الذي اصدرته بتسرّع وبدون روية».

لم تلن نظرات هيلين القاسية ولم تتبدل ملامحها الغاضبة، فسألها جستن بحدة:

«سامحك الله، لماذا لم تخبريني القصة كما حدثت؟».

«اعطني سبباً واحداً يدفعني للشرح والتفسير».

«لأنني اكره ان تصدر عني افتراضات خاطئة».

«ما تعنيه هو انك تكره الوقوع في الخطأ ومن ثم الاضطرار الى تقديم الاعتذار».

«عكس ذلك هو الصحيح. فأنا استاء جداً ان تسببت باقلاق راحة انسان لا ذنب له».

وقفت هيلين غاضبة وقالت له وهي تهمّ بالذهاب:

«لمعلوماتك يا سيد فالمونت، فأنت لم تقلق راحتي البتة. هناك امور اخرى اكثر جدية تقلقني وتشغل بالي».

«ابي، ابي، تعال الى هنا. وجدت هذه الـ. . . .».

شاهدت جولييت صديقتها هيلين فهرعت باتجاهها وهي تتابع جملتها:

«انه سرطان بحري كبير لا يقدر على العودة الى الماء وأنا خائفة من أرجله العشرة و. . .».

استدار جستن بعصبية نحو ابنته وقال لها مقاطعا:

«جولييت، اذهبي وامرحي لوحدك مدة خمس دقائق فقط، فأنا اريد التحدث مع هيلين».

دهشت الفتاة الصغيرة لهذا التصدّي، ثم تحولت دهشتها الى ابتسامة ساخرة وقالت لوالدها:

«حسناً سأذهب. بالمناسبة، ألست في صدد تقديم اعتذار رسمي لـ. . .؟».

نهرها والدها، فانقلبت إبتسامتها ضحكة مدوية وركضت مبتعدة عنها. وعندما تأكد انها اصبحت بعيدة بما فيه الكفاية، التفت ناحية هيلين وقال لها:

«اخبريني بصراحة، هل كنت حقاً تعتقدين انني سألعب مع جولييت دور الأب القاسي وانني سأضربها ضرباً مبرحاً؟ وهل اقنعتك فعلا بأنها خائفة مني لدرجة الرعب؟».

«لا، لم تكن هكذا بالضبط، ولكن جولييت كانت خائفة جداً عندما اتصلت بي من اندانو. وعليه. . .».

قاطعها جستن بابتسامة رقيقة وقد تبدّلت ملامحه القاسية:

«وعليه، فقد مضيت في لعبة اخفاء الحقيقة عني».

ثم تحولت نظراته الى جولييت، التي خلعت حذائها واخذت تمشي في

الماء، وقال لهيلين بدون ان يلتفت اليها:

«وبالرغم مما حدث، فأنا ممتن لك جداً لاسراعك بمساعدتها، مع انني كنت اتمنى لو انها اتصلت بوالدها عوضاً عن الاتصال بانسانة غريبة تكاد لا تعرفها».

«ان محاولة اخفاء الاخطاء عن الأهل هي ردّ فعل طبيعي لدى جميع الأطفال».

ابتعدت عنه هيلين قليلا رافضة الاعتراف بالانزعاج الذي اصابها لدى وصفها بالغريبة. نعم، انها غريبة بالنسبة اليه. أما جولييت فهي . . . وفي تلك الأونة شاهدتها تركض نحوها وتطالبها بالسباحة معها. قالت لها هيلين انها، على عكسها، لا ترتدي ثياب البحر. ردّت عليها صديقتها الصغيرة باصرار وحماس:

«الا يمكنك احضارها من البيت؟ سأذهب معك ان اردت، فأنا لم اشاهد بيتك بعد. هيا بنا».

تدخّل جستن في الحديث ووجّه كلامه الى هيلين قائلا:

«لست مضطرة لقبول ذلك. فجولييت ناضجة بما فيه الكفاية لتتقبل النفي بين الحين والآخر».

هل يريدها ان ترفض؟ هل كانت تتخيل بأنه لا يريد ولا يشجّع قيام مثل تلك الصداقة اللطيفة التي بدأت تنمو بسرعة بينها وبين ابنته الصغيرة؟ نظرت هيلين الى وجه جولييت فأحزنتها النظرة الكئيبة وخاصة عندما سمعتها تهمس قائلة:

«الا تريدين مشاركتي في السباحة؟».

«بلى بالطبع».

قالتها هيلين بروح من التحدي لجستن، ولكنها فوجئت به يقول بهدوء:

«ولمَ لا! كم بودّي الانضمام اليكما عوضاً عن التوجه الى عملي».

«دعنا يا ابي، و. . .».

«ربما انضم اليكما في يوم آخر، عندما يعود روجر من عطلته. ولكن قبل ذهابي الى العمل الآن أود ان اوصيكما انت وهيلين بالانتباه الى مسألة هامة جدا. ففي بحار المناطق الاستوائية مخاطر عدة لا تعرفان عنها شيئا».

وبعد ان أعطى تعليماته وملاحظاته، نظر الى ساعته وقال لجولييت:

«يجب ان اذهب الآن. سأطلب من ألي ان تحضّر وجبة اضافية، أليس كذلك يا حبيبتي»؟

ثم تطلع جستن نحو هيلين وقال بمرح:

«ان افكار ابنتي بالنسبة الى الضيافة لم تتقدم او تتطور بعد. وهي تقتصر على اقتسام قطعة حلوى او زجاجة من العصير».

وبتحوّل مفاجىء ادهش هيلين وجولييت على السواء، ودّع جستن ابنته قائلا:

«من الآن فصاعداً يمكنك الاتفاق مع هيلين على البرنامج الذي ترتأين، وابلاغ ألي عندما تقررين دعوة ضيوف على الغداء او العشاء».

هل قبل بها جستن؟ هل كانت جملته تلك دعوة مفتوحة؟ وتصارعت في افكارها الدهشة والنقمة معاً. فهل تضحك بمرارة ام تسأل بسخرية عن اسباب تكريمها الى هذا الحد؟ وشدّتها جولييت بيدها فذهبت معها. وعندما تطلّعت وراءها كان جستن لا يزال واقفاً وقد حيّاها بمجرد مشاهدة وجهها ثم قفل عائداً نحو الفيللا.

٥-بكاء قرب الشجرة

خلال الأيام التي تلت ذلك اللقاء الودّي مع جستن فالمونت، شعرت هيلين للمرة الاولى منذ وصولها الى الجزيرة بشيء من السكينة وراحة البال.

لقد اصبحت جولييت تستهلك جزءا كبيراً من وقتها. ولو خطر ببالها ان تحلل اللذة التي تشعر بها اثناء وجود الطفلة الصغيرة معها، لتبينّ لها على الأرجح ان احد اسباب تلك السعادة ينبع من حاجتها هي لتعويض ما فاتها من نشاط.

وكان أفضل ما قامتا به سوية الصناديق الصغيرة المغطاة بالأصداف الجميلة الجذّابة، والتي كانتا تهديان منها لكل من يظهر اعجابه بها مثل ألي وماريز ونورين وزوجة المفوض العام وغيرهن. وبعد ظهر أحد الأيام، دخل جستن الى البيت وقبّل ابنته ثم جلس قربها وقال لهيلين:

«كيف كان انتاجكما اليوم من صناديق الاصداف»؟

«لقد تحوّل الى انتاج العطورات».

قالتها هيلين وهي تشير بيدها الى أحد الصناديق الممتلئة بالزهور العطرة الموجودة امام جولييت. وعندها نظرت الفتاة الصغيرة الى والدها وبدأت تشرح له عن بعض الأزهار وتسأله عن البعض الآخر. وكان جستن طوال الوقت يستمع بتهذيب أو يجيب بلطف وحنان. وأخذت هيلين تتأمله وتعجب من هذا التحوّل الكلّي الذي طرأ على معاملته لها. فقد اختفت من تصرفاته تماماً تلك العنجهية الفارغة وذلك التعجرف القاسي. ومع ذلك فانها لا تزال غير مرتاحة الى المضايقات الصبيانية المتكررة التي تواجهها منه هي وجولييت على السواء. اضف الى ذلك التناقض بين الانزعاج

والانشراح الذي تشعر به كلما دللها او تساهل معها، شأنها في ذلك شأن ابنته الصغيرة.

في تلك الاثناء سمعت هيلين صديقتها الذكية تقول:

«لقد قررت أن لا نزعج انفسنا بالعطورات، فلديّ فكرة افضل، لنبنِ خيمة تكون كمنزل صغير ونستخدمها للتسلية ولدراسة فروضي».

«انها فكرة مذهلة يا حبيبتي، ولكنني متعب جداً الآن وعليه سنبحث الموضوع في وقت لاحق. بالمناسبة، ما رأيك في الذهاب الى المطبخ والطلب من طوم ان يحضر لنا كمية كبيرة من العصير».

اطاعت جولييت والدها على الفور وتوجهت لاحضار العصير. وأثناء ذلك ألقى جستن رأسه الى الوراء، وسأل هيلين عما اذا كانت جولييت تسبّب لها التعب والارهاق نظراً لحركتها الدائمة وتنقّلها المستمر. وعندما اجابته بالنفي، ابتسم وقال:

«لم أشك في ذلك، فأنت لا تزالين في مقتبل العمر وتتمتعين بحيوية الشباب. وأراهن أنك لست أكبر من جولييت الا بحوالى سبع سنوات».

وجّهت اليه هيلين نظرة ثاقبة وقالت بكبرياء:

«لا بل أحد عشر عاماً تقريباً».

«هذا ليس فارقاً كبيراً خصوصاً وأنكما دون العشرين. أضيفي خمس عشرة سنة أخرى وتخيلي شعوري أنا».

وعندما لم يصدر عنها أي رد فعل، تطلّع نحوها وسألها:

«ألا تشعرين بأن جولييت تفرض نفسها عليك لدرجة الانانية والتملّك؟».

«معاذ الله، أبداً».

«يبدو أنها تأخذ جزءاً كبيراً من وقتك. أنا اعلم انك تمضين هنا عطلة للراحة والنقاهة، ولكن لا تدعيها ترهقك بالمطالب والرغبات الكثيرة».

«ليس لديّ ما اشكو منه على الاطلاق. فجولييت قنوعة جداً. واذا كانت هناك من مطالب فانها صادرة عني أنا وليس عنها. وكل ما أعرفه انني ارتاح جداً لوجودي معها».

وعندما نظرت الى عينيه وشاهدت ما تصورته في بادىء الأمر قلقاً وانزعاجاً، قالت له بلهجة من يدافع عن نفسه:

«لماذا تقلقك صداقتنا الى هذا الحد؟ انك لم ترد أبداً ان تنشأ علاقة كهذه بيننا، أليس كذلك يا سيد فالمونت؟».

تنهّد جستن وأبعد نظراته عنها قائلا:

«لا ليس الأمر هكذا على الاطلاق. واعتقد انك اصبحت تعرفينني بما فيه الكفاية فناديني باسمي الأول عوضاً عن السيد فالمونت. أنا اعترف انني كنت متسرّعاً في تقييمي الأول لك. ولكي أكون صريحاً معك، فأنا اعرف المجموعة التي ترافقها زوجة ابيك وابنتها، وأشعر بأني لا أميل أبداً الى طريقة حياتهم ومعيشتهم. وبالتالي اعتقدت انه لن تكون لديك المقدرة او المزاج للاستمتاع بالرغبات البسيطة لطفلة في الثامنة من عمرها. كذلك لم ارغب في ان تصبح جولييت تسلية مؤقتة لك، تضعينها جانباً عندما تبدأ حياة اللهو مع كيت مانتون وجماعة سندانا».

توقف جستن لحظة عن الكلام ثم تابع حديثه متسائلا:

«أفترض انني اطمع بالكثير ان توقعت منك فهم الموضوع كما أفهمه أنا».

أجابته هيلين بهدوء وبلهجة الواثق من نفسه:

«ان افتراضك ليس في محله. فأنت لم تفعل سوى تأكيد ما كان واضحاً جداً بالنسبة الي».

ومضت الى القول بمرارة وأسى:

«لقد امضيت الاسبوع الأول لوجودي هنا بترف وبذخ ولهو، وتأكد من انني لم استمتع به اطلاقاً. فكوني كرّست جزءاً كبيراً من حياتي للمسرح، لا يعني انني احب الذهاب ليلياً الى حفلات تستمر حتى الفجر، او ان الهث مع اللاهثين وراء المرح الصاخب والمجنون. لقد كانت مهنتي اكثر صعوبة من اي شيء آخر، ولكنني احببتها واخلصت لها».

«نعم لقد بدأت افهم. أنا آسف جداً. أقولها لك باخلاص، انني اعرف الآن كم كنت مخطئاً بحقك يا هيلين».

«ولكن ماريز كانت تحاول ان تكون طيبة معي مستخدمة الاسلوب الوحيد الذي تعرفه. لقد كانت فكرتها هي ان آتي الى سلمندر، واعتقدت انها اذا احاطتني بجو صاخب من التسلية المتواصلة، فانه لن يظل لديّ الوقت الكافي للتأمل والتذكّر».

«لم ينفع هذا الاسلوب، أليس كذلك؟».
هزّت هيلين برأسها وقالت بلهجة حزينة تنم عنها عينان زائغتان:
«لم يعد في حياتي الآن اي هدف لأعمل على تحقيقه».
ظل جستن صامتاً لبعض الوقت ثم سألها بهدوء:
«ماذا ستفعلين؟ هل ستعودين الى انكلترا؟».
«كلا، ليست لديّ اية رغبة في العودة إلى انكلترا، خاصة انه ليست لديّ القدرة على تحمّل ذلك».
«وهل تعتقدين أنك ستجدين هدفاً لحياتك هنا؟».
وتابع جستن كلامه بشيء من التحدّي الايجابي:
«أنت شابة في مقتبل العمر وقادرة على البدء من جديد، بمهنة جديدة وحياة جديدة. والأرجح ان الحياة في انكلترا ستفسح لك مجالا أكبر بكثير من حياة الكسل واللامبالاة التي ستواجهك هنا».
«لا، لا، لن اعود، لن اعود».
وأطلت جولييت ومعها عصير الفاكهة المثلّج، مما افسح المجال امام هيلين لتخفي دموعها بسرعة، وتهرع لملاقاة صديقتها الصغيرة ومساعدتها. لقد اشعلت تلك المحادثة مع جستن ناراً سعت جاهدة لاطفائها، او على الأقل لدفنها تحت الرماد. وشعرت في تلك اللحظة بأنها لا تريد التفكير بأي مستقبل بدون رقص الباليه، وكذلك بأي ماض. لم ترغب فعل اي شيء، سوى النسيان.
لم يقم جستن فالمونت بأية محاولات اخرى لبحث موضوع يبدو بوضوح انه يؤلمها. كذلك ثبت ان تلك الحادثة الصغيرة كانت المضايقة الاولى في اسبوع احسّت خلالها بالطمأنينة والسكينة الى حد ما.
شكلياً بدا ذلك الاسبوع طبيعياً وعادياً. فقد عادت الخادمة الى العمل، وماريز ذهبت الى مصففة الشعر، ونورين تخاصمت قليلا مع راي سندانا ثم تصالحا. وكيت مانتون كان يحضر الى البيت وفقاً لاتصالات سابقة او حتى بدون توقع. وصباح السبت كانت ماريز مرحة ومسرورة اكثر من المعتاد. ولدى تناولهن الفطور سألت ماريز كلاً من نورين وهيلين:
«من منكما تحزر سبب فرحي؟».
«مما لا شك فيه يا أمي انك حصلت على ثروة او كنز».

«نعم، ولو أنك تقولينها بتهكّم. فأنا أيتها الحبيبتان سأتزوج».
توقفت نورين وهيلين عن تناول طعامهما وأخذتا تحدقان بها وتنظران الى بعضهما البعض، عندها، جلست ماريز مرتاحة وسعيدة بالاعلان الذي أذاعته لتوّها. ثم قالت بغنج ودلال:
«هل دهشتما؟ لقد قررنا أنا وكيت الليلة الماضية ان الوقت قد حان لكي نتزوج».
وعادت ماريز تنظر الى نورين وهيلين المشدوهتين، ثم غابت الابتسامة عن محيّاها وقالت بشيء من الألم:
«ما بكما! أليس هناك اي شيء تقولانه؟».
كانت نورين اول من استفاق من الدهشة والصدمة فقالت:
«بصراحة، أنا لا اظن ان الموضوع جدير بالبحث».
«ولماذا هذا الكلام يا حبيبتي؟ فأنا وكيت تخطّينا ايام العشق والهيام، الا ان كلا منّا وحيد وبحاجة الى الآخر. هو في الخمسين من عمره وأنا في الأربعين، وكل عام يمر في حياتنا يفرض علينا بذل جهود جبّارة لمجاراة التيارات الجارفة. وتأكدي يا ابنتي ان المرأة تواجه صعوبة اكبر في هذا المجال».
«حسناً، مبروك و. . . الى آخر ما هنالك من تمنيات. وبالمناسبة، افضل الذهاب الى عملي بمفردي حتى لا تضطر أمي العاشقة لتأخير مواعيدها».
كانت هيلين صامتة طوال الوقت، وقد تحوّلت الصدمة في بادىء الأمر من دهشة واستغراب الى استياء وذهول. وفجأة شعرت وهي تنظر الى وجه ماريز الحزين، بموجة عارمة من العطف والحنان تجاهها. فقفزت من مكانها وعانقت زوجة ابيها قائلة:
«انك لا تزالين في عمر الحب والزواج، فلما لا تحبين وتتزوجين؟ اتمنى لكما، انت وكيت، كل السعادة والهناء وأنا جد مسرورة لأجلكما».
شدّت ماريز على يدها وقالت لها بارتياح:
«وهل تعنين ذلك؟ لقد كنت حائرة بردّ الفعل الذي سيصدر عنك، خصوصاً بعد. . .».
عرفت هيلين بقية الجملة بدون ان تضطر ماريز لاكمالها، وقالت لها

بهدوء:

«لا يا ماريز. كان أبي يعرف تماماً ما يعنيه البقاء وحيداً. ثم وجدك وكان سعيداً جداً معك. وأؤكد لك انه لم يكن ذلك الانسان الذي يريدك ان تقضي بقية حياتك تعيشين على ذكراه».

«انك مثله تماماً يا حبيبتي. فلديكما التفهم ذاته والجدية ذاتها في نظرتكما الى الحياة. ولديك ايضا هذه القوة الخفية التي كان يتميز بها. أنا اضعف منك بكثير، لأنه لا يمكنني مثلا مواجهة خسارة كبيرة كفقدان والدك بمثل رباطة الجأش التي تحلّيت بها أنت».

أرغمت هيلين نفسها على الابتسام، لأنها تعرف ان احزان ماريز سرعان ما تتبدد، وتبدأ على اثر ذلك خطط الاحتفال بزواجها من كيت. وبالفعل، فقد أعطت الخادمة تعليمات جديدة لاعداد المنزل بصورة لائقة، كما ارسل كيت خادمه للمساعدة في ترتيب الحديقة والمدخل الخارجي.

«ومتى سيتم الزواج؟».

سألها جستن ذلك بمجرد ابلاغه النبأ خلال لقائهما بعد الظهر.

«قريباً جداً حسبما اعتقد. فماريز لا تتحدث الآن الا عن الحفلة التي ستقيمها في الاسبوع المقبل. وقد طلبت مني ان انقل اليك دعوة للحضور، فهل ستأتي؟».

استغرب جستن الدعوة الى حد ما ثم هزّ برأسه قائلا:

«اشكريها بالنيابة عني، ولكني اشك في ان يسمح لي وقتي بذلك. فمساعدي يمضي الآن عطلته السنوية، ويوم الخميس لديّ مهمة تفتيشية في روغان».

وتذكّرت هيلين أن روغان جزيرة صغيرة جداً تبعد حوالى خمسين كيلومتراً عن سلمندر، ويتم فيها انتاج السكّر تحت اشراف الشركة التي يديرها جستن. وكانت على وشك سؤاله عن سبب اختياره ذلك اليوم بالذات، ولكنها تراجعت في اللحظة الاخيرة، لأنها تعرف نمط العمل المنظّم الذي يتبعه جستن.

ولأنه ربما لاحظ خيبة الأمل على وجهها، ابتسم وقال برقّة متناهية:

«ان لم اتأخر كثيراً اثناء العودة فسأحضر الحفلة، هذا اذا كانت ماريز لا

تعترض على وصولي متأخراً».
«في حفلات ماريز، لا يهم ابداً ان يتأخر هذا المدعو او ذاك، ما دام انه لا يحضر مبكّراً ويجدها غير مستعدة».
اكّدت له ذلك مع انها كانت تشعر في تلك اللحظة بأنه لا ينوي اطلاقاً قبول الدعوة. وبعد تردد وجيز سألته بهدوء:
«هل يمكنك ان تدلّني على وظيفة ما يمكنني القيام بها؟».
«هنا؟ وأي نوع من الوظائف تريدين؟».
«لا ادري اي نوع يناسبني. فعليّ ايجاد شيء ما يملأ وقتي خاصة وأن ماريز سوف تتزوج و. . .».
«النساء لا يعملن في سلمندر الا في مجالات التمريض او التعليم او مجالات الرعاية الاجتماعية».
«لا يهمني نوع العمل على الاطلاق ما دام انه يملأ وقتي ويضمن لي دخلا يكفيني لاستئجار شقة صغيرة خاصة بي».
«ولنفترض انك نجحت في تحقيق ذلك، فهل تعتقدين انه سيكون كافياً لارضائك؟».
«ليست لديّ خيارات اخرى كثيرة. ولا تقترح عليّ مرة اخرى العودة الى انكلترا. يجب ان ابدأ من الصفر اينما كنت، وعلى الأقل سلمندر دافئة طوال السنة. والشيء الأهم انه يجب عليّ البدء الآن باعداد الترتيبات الخاصة بسكني».
«وهل بحثت هذه الأمور كلها مع زوجة ابيك او مع اي شخص آخر؟».
وبعد ان اجابته، بالنفي ظل جستن صامتاً ومقطّب الحاجبين. ولما شاهدت القلق يتزايد في نظراته، شعرت بشيء من الخجل وقالت له:
«كانت مجرد فكرة. ارجوك الا تقلق. فأنا لست إنسانة معوزة، ولكن عليّ الاحتفاظ جانباً ببعض مدخراتي. ومن المؤكد ان شيئا ما سيحدث».
«انت تتصورين يا عزيزتي أن ذلك امر بسيط للغاية. يؤسفني ان اقول لك انك على خطأ تام. فلن يحدث اي شيء ما دمت تهربين. وأنت تهربين، أليس كذلك؟».
وقبل ان يدعها تيأس، وضع يده على كتفها برفق وحنان، وقال لها وهو

في طريقه الى عمله:

«لا تقلقي يا هيلين. اذا كانت هناك ضرورة قصوى، فمن المحتمل ان يحدث شيء ما، كما كنت تقولين. وسوف اخبرك بمجرد حدوث هذا الشيء».

عادت الافكار المتضاربة حول جستن تضج في رأسها، وأخذت آراؤها تتأرجح بين الغضب الشديد منه لعدم قدرته على التفهم، وبين الحاجة الماسة لحل مشكلة مستقبلها بصورة فورية. لا، ليس من حقه التحدث عن الهروب. فكيف يتسنى له ان يفهم معنى الاضطرار القسري لترك المهنة التي يكرّس الانسان لها حياته بكاملها؟ لقد كرّست جميع ساعات يقظتها منذ كانت في السابعة من عمرها لتصل الى ما كانت تصبو اليه وتحلم به.

ولكن كيف يبدأ الانسان حياة جديدة؟ وكيف تبني هي من جديد حياة تعيد اليها ما فقدته من فرح ومرح وسعادة؟ لن تكون ضعيفة او عالة على احد. ستجد وظيفة. يجب ان يكون هناك عمل ما يمكن ان تقوم به في تلك الجزيرة. واذا استنفدت جميع المحاولات وفشلت، فالعرض الذي قدّمه لها كيت مانتون لا يزال قائما، مع انه سيؤلمها كثيراً ان هي اضطرت للرقص في ناد ليلي.

ولدى توصلها الى تلك النتيجة، شعرت بشيء من التحسّن وقررت تحويل انتباهها كاملا الى المشاركة في اعداد الترتيبات الخاصة بحفلة الزواج. وأثناء ذلك وصلت نورين ومعها عدة اكياس من المأكولات المخصصة للحفلات. ثم نادت هيلين وابلغتها بأن لها رسالتين من انكلترا.

هرعت هيلين لملاقاة نورين واستلام الرسالتين. الا انها شعرت بشيء من خيبة الأمل عندما قرأت اسمي ليزا وسارة. هل كانت يا ترى تأمل في استلام رسالة من كفين؟ كلا، فقد قطعت الأمل منذ أمد بعيد مع انه وعدها مرة بالكتابة اليها.

اخذت الرسالتين وذهبت الى غرفتها لتقرأهما بهدوء، وقررت ان تبدأ برسالة سارة. وابتسمت هيلين وهي تفتح تلك الرسالة القصيرة، وتذكّرت ان سارة كانت دوماً قادرة على التعبير عن نفسها بالرقص وليس بالكتابة. وكانت رسالتها تتلخص بأنها تشكّ في امكانية حصولها على دور صغير في

احد الافلام السينمائية. وقد شرحت ليزا في رسالتها المطولة المشكلة التي تعانيها صديقتهما المشتركة على النحو التالي:

«مسكينة سارة، فهي لا تنام الليالي بسبب هذا العرض. فهل تترك رقص الباليه والفن الحقيقي لتقوم بدور انسان آلي في فيلم خرافي عن المستقبل، لمجرد اغرائها بالذهب القذر. أنا من ناحيتي لا أقلق ولا أتردد لحظة واحدة في قبول الذهب. الا انه ما من منتج سينمائي يبدو متحمساً لاغرائي بعقود الافلام المطعّمة بالذهب...».

ابتسمت هيلين، وقرأت بسرعة المقاطع التالية التي كانت مجرد ثرثرة وأقوال سطحية. ثم وقع نظرها على فقرة جعلت يدها ترتجف واعصابها تتوتر:

«... ولا ادري ما اذا كان يجب اخبارك كل هذه التفاصيل ام تركك غارقة في اوهامك وأحلامك. كلنا نعرف ان كفين مراهق ومستهتر الا انه حتى نحن انفسنا لم نكن نظن يوماً بأنه يصل الى حد التعلّق بتلك المعتوهة ايضا. هل تذكرينها؟ انها ضد كل شيء وكل انسان باستثناء نفسها، وكفين، على الأقل في الوقت الحاضر.

بالمناسبة هل تعتبريني قاسية لو اخبرتك انني اخذت دورك في المسرحية! ومع تعلّقي بهذا الدور، وثقتي الأكيدة بأني حصلت عليه بنتيجة العمل الدائب والأفكار الخلاّقة، الا انني مستعدة للتخلي عنه فوراً اذا تمكنت من العودة...».

سقطت الرسالة من يد هيلين المرتجفة، وعادت الذكريات والأفكار المشوّشة. آه يا ليزا ما اروع اخلاصك، فلولا مثابرتك وعطفك وصداقتك لما تمكنت من تمضية تلك الاسابيع الحزينة والتعيسة على اثر الحادثة.

«هيلين؟ أوه، لا تزالين هنا؟ أرجوك يا حبيبتي، اسرعي باعداد الأزهار. وربما وضعت المزهرية الزرقاء الكبيرة في القاعة، فمنظرها جميل جداً عندما يراها الناس لدى دخولهم. ثم، اعدّي نفسك للحفلة».

وبدأت الحفلة وكان لها جميع مقومات النجاح الباهر. فالمأكولات متوافرة ومتنوعة، والمختارات الموسيقية جيدة، واكثر من ذلك فإن الضيوف مصممون على الاستمتاع بأوقاتهم. الا انه كلما مضت ساعة على تلك السهرة الصاخبة، ازداد وجع رأس هيلين. فالتعب والارهاق،

والذكريات المزعجة، والحر الشديد وكثرة المدخّنين، اجتمعت كلها لتزيد في الطين بلّة. وفجأة شعرت بذراع حول كتفيها، فتبادر الى ذهنها ان جستن فالمونت قد دخل الى القاعة بدون ان تلاحظه. وتطلّعت وراء ها لتشاهد كيت مانتون يقول لها باخلاص واهتمام:

«أنت متعبة قليلا يا عزيزتي، أليس كذلك؟».

وعندما اجابته بالايجاب الذي رافقته ابتسامة شكر وامتنان، قال لها:

«لقد ارهقت نفسك لضمان نجاح هذه الحفلة. اذهبي واجلسي قرب النافذة وسأحضر لك كأساً من العصير المثلّج».

أحضر لها كيت العصير البارد فأخذت ترشفه بهدوء وتمهّل، وتتأمل في الوقت ذاته تلك الغرفة ومن فيها. هل سيتأخرون كثيراً؟ هل ستزول رائحة الدخان العابقة، وهل سيتمكن احد من تنظيف ذلك المكان؟

وما هي الا دقائق معدودة حتى وضع احد الساهرين اسطوانة قديمة ليتذكّر الماضي، على حد قوله. وتشاء الظروف ان يكون المقطع الأول هو اللحن الرئيسي في مسرحية الباليه الشهيرة «بحيرة البجع».

سقطت الكأس من يدها وقفزت من مكانها مسرعة باتجاه الباب. اذ لم تعد لها القدرة على التحمّل وعلى سماع تلك المقطوعة الموسيقية. الا انها كيف تهرب من نفسها، فالموسيقى تسري في عروقها. وظلت هيلين تسمع ذلك اللحن الحزين لمدة طويلة. لماذا هذا العذاب؟ لماذا؟ وماذا تفعل هي هنا في سلمندر؟ انها لا تنتمي الى هذه الجزيرة الحارة والكسولة.

وتوقفت هيلين قرب شجرة قديمة وأخذت تردد لنفسها ان عليها القبول بوضعها الحالي ونسيان الماضي بصورة تامة. لقد قبلت بواقعها خلال الاشهر الثلاثة الماضية. وهي لن تعود، لا يمكن ان تعود. لماذا لا تفهم بأن حياتها كراقصة باليه قد انتهت؟ لماذا لا تفهم بأنه لن تحدث اية عجائب، وأن الوقت وحده هو الذي يساعدها على النسيان الحقيقي والنهائي...؟

«هل انتهت الحفلة؟».

استدارت هيلين بعصبية متطلعة نحو صاحب الصوت، لتشاهد جستن ينظر اليها بشيء من القلق ويسألها عما بها.

«أنا، أنا...».

وتلعثمت وانهمرت الدموع من عينيها، ثم قالت:

«لا، لا».
حاولت ان تذهب بعيداً عنه. الا انه امسك بذراعها وقال لها:
«لا ليس بهذه السرعة. ما بك، اخبريني الآن».
«لا شيء، لا شيء، ارجوك...».
وابعدت وجهها عنه متجنبة نظراته، محاولة في الوقت نفسه اخفاء دموعها. وضغطت يده على ذراعها بقلق وحنان، وقال بلهفة واضحة:
«لا شيء؟ ما هو السبب الحقيقي؟ هل أحد...».
«لا، قلت لك لا، لم يحدث شيء. لا يمكنني ان اشرح لك. دعني أذهب، أرجوك. لن تتمكن ابداً من فهم ما حدث. لن يتمكن احد على الاطلاق، لأن...».
«هيلين!».
قالها بلهجة صارمة لا تقبل الجدل، ثم وقف امامها وجهاً لوجه وأمسك بكتفيها مضيفاً:
«اصغي يا هيلين. لن تتمكني من الهرب الى ما لا نهاية. يجب ان تواجهي هذا... هذا الواقع».
«هذا ما يقوله الجميع. ولكنه ليس من السهولة ابداً أن...».
وتلعثمت مرة اخرى. وأخذ جسمها يرتجف ويرتعش بقوة، وعادت مرة اخرى الى البكاء. وبيدين باردتين كالثلج حاولت ازاحة يديه عن كتفيها لتهرب منه مجدداً، ولكنها سمعته يقول لها:
«يجب ألا تخجلي من البكاء، فالدموع تساعد كثيراً على غسل الأوجاع والآلام. بالله عليك يا هيلين، انهي هذا العذاب الذي يقض مضجعك، وليكن ذلك بشكل نهائي، عوضاً عن...».
وفجأة توقف عن الكلام، وحملها بين ذراعيه، وتوجّه بها الى منزله. وبعد ان ادخلها الى القاعة، وضعها على الكنبة وأحضر لها فنجاناً من القهوة الجاهزة وأمرها بتناوله على الفور. شعرت هيلين بتحسن كبير على أثر ذلك، خاصة ان الهدوء كان شاملا، وجو البيت نظيفاً وغير عابق بالدخان والروائح الأخرى. وعندما شكرته على اهتمامه البالغ ورعايته المخلصة، سألها جستن:
«والآن، أخبريني عما جرى لك وكاد ان يوصلك الى حافة الانهيار العصبي».

«لا شيء، حقاً. لقد كنت سخيفة الى حد كبير ولم أتمكن من السيطرة على اعصابي ومشاعري. والآن، من الأفضل لي ان اعود فوراً الى البيت قبل ان يبدأ اي منهم بالبحث عني. اشكرك مرة اخرى، واعتذر لأني، لأني...».

«لأنك ماذا؟ وعلامَ تعتذرين بحق السماء؟».

«عن كوني هكذا وبهذه الحالة. كنت اعتقد ان الرجال يكرهون الدموع».

«لا ليس الأمر كذلك. فالرجال لا يحبون عنصر الابتزاز العاطفي في دموع النساء وليس الدموع بحد ذاتها».

«كنت هناك بطريقة الصدفة، وكان بامكانك الذهاب».

«واذهب من ارضي؟».

«لم اطلب منك احضاري الى هنا».

«لم تكوني يا عزيزتي في وضع يسمح لك بسؤالي عن شيء، او حتى بالاهتمام بنفسك. وهل كنت تتوقعين حقاً ان اتركك في الوضع الذي كنت فيه؟ انك حقا تغالين. ثم، ألا يمكن الاعتراف لي بالقليل من العطف والتفهّم؟!».

شعرت هيلين بقليل من الخجل وقالت لجستن:

«صدقني، فأنا لم تكن لديّ اية رغبة بممارسة الابتزاز العاطفي. اني اكره ان يراني احد باكية».

«أعلم ذلك. ملاحظتي كانت في غير محلها وغير وقتها. اعذريني».

وبعد ان تساءل بصوت عال عن المدة التي مضت عليها منذ حادثتها، وهي ثلاثة او اربعة اشهر كما قال، اخذ جستن يعظها قائلا:

«انها فترة طويلة جداً واكثر من كافية لنسيان الماضي وللتفكير بما كنت ستصبحين لو لم تقع تلك الحادثة. انها فترة طويلة جداً للبقاء في هذا السجن الذي بنته هيلين الحزينة حول نفسها. وكلما طال الوقت وأنت في وضع كهذا، صعب عليك الخروج منه والتخلص من آلام الماضي».

«انك تتحدث كأحد الأطباء النفسيين أو أحد الواعظين، وتحاول حل عقدة مستعصية...».

«انك لا تزالين ترتجفين. فهل تريدين التحدث مطولا عن هذا الموضوع؟».

«وهل هناك أي شيء لأتحدث عنه؟ لقد وقعت لي حادثة أليمة انهت حياتي العملية كراقصة باليه. وهذه الحوادث قد تقع لأي كان. أنا محظوظة

لأنني لم أمت، ولم اصبح مقعدة، او عمياء او خرساء. كما انني لا زلت قادرة، ولو قليلا، على ممارسة الرقص. وهنا تكمن المشكلة، قادرة ولست قادرة. والناس يقولون انني صاحبة حظ كبير، وانني يجب ان اكون ممتنة. ولكنني لست كذلك، وهذا ما يؤلمني كثيراً».

«وهل كنت تفضلين الشلل على وضعك الحالي؟».

«لا أعلم، لا أعلم. فمن الخطأ الفادح ان افكر هكذا».

«صحيح ما تقولين. ولكنني بدأت افهم مشكلتك بشكل اوضح. مهنتك كانت شيئا خاصاً الى ابعد الحدود. ويبدو ان الفن كان جزءا منك. ولهذا كانت الصدمة قوية الى هذا الحد».

وسألها كيف وقعت الحادثة، فأخذت تشرح له بالتفصيل. وعندما انتهت من رواية ما حدث، قال لها بحنان:

«وهل تعتقدين ان من الصواب سلخ نفسك كلياً عن العالم الذي كنت تنتمين اليه؟».

«لم يعد لي مكان في ذلك العالم».

«أنا لا اعرف الكثير عن عالم الباليه والمسرح والفن. ولكنني اعرف أنه وقعت حوادث مماثلة او أسوأ بكثير لعدد كبير من الفنانين ولم يقعدهم ذلك عن متابعة العطاء. الموسيقي الشهير بيتهوفن حقق معظم اعماله الخالدة وهو مصاب بصمم تام. اي انه لم يتمكن من سماع السيمفونيات الرائعة التي ألفها».

«الأمر يختلف بالنسبة الى الرقص».

«هل حقاً يختلف؟ أنا لا اعرف شيئا البتة عن حياة الراقصين، ولذلك فلن أجادل في هذا الموضوع. ولكنك فتاة شابة والمستقبل كله امامك. ثم، أليس صحيحاً ان الهدف الحقيقي للنساء يتحقق في مجال فريد ومميز؟».

«وهل تعني الزواج؟».

«ألا يلعب الزواج اي دور في رغباتك المستقبلية؟».

«لا، فالزواج ليس حلا لمشكلتي».

«اذاً فماذا تقترحين لحياتك؟ أتريدين تمضيتها في التحسّر والندم على الآمال المفقودة؟ أتريدين ان تظل جروحك هكذا، غير مضمّدة، ومعرّضة بين الحين والآخر لمثل ما حدث الليلة؟ متى ستبدأين الحياة من جديد؟».

«لهذا السبب أتيت الى سلمندر. تركت لندن لأبتعد عن كل ما يذكّرني بأحزاني».

«يبدو ان محاولتك هذه باءت بالفشل».

عاد التأثر البالغ الى نظرات هيلين، ثم أخبرت جستن عما حدث في حفلة ماريز، وكيف انها لم تتحمل سماع تلك المقطوعة الموسيقية. وتحدثت مرة اخرى عن معاناتها الشديدة بتأثر بالغ، فقاطعها بهدوء وهو يمسك يدها برفق ومودّة:

«انت محقّة في كل ما تقولين. ولكن السعادة في الحياة يا عزيزتي لا تقتصر على مجال واحد. فليس هناك ليل بدون نهار. ثم، أهو حكم مؤبد؟ لا، فأنت شابة في مقتبل العمر، وروح الشباب تتخطى جميع الصعاب. ولماذا انت متأكدة هكذا من انك لن تتمكني من الرقص بعد الآن؟ اذا شفيت رجلك بصورة طبيعية...».

«هذا ما يقوله الجميع، ما عدا الاشخاص الذين يعلمون. كفين قال لي كلاماً كهذا. وقال لي اني سأرقص مرة اخرى في المسرحية الجديدة، وعلى الموسيقى التي ألّفها خصيصاً لي. وكفين الآن...».

وأجهشت بالبكاء وقد شعرت بأن جميع الاحزان والآلام التي حاولت طمسها، عادت فجأة الى الظهور وبصورة أعنف من السابق. وظل جستن جامداً بدون حراك لفترة طويلة، ثم وضع يده على رأسها وأعطاها باليد الأخرى منديله المطرّز قائلا:

«كان عليك تنفيس هذه الضغوط منذ زمن بعيد، فهذا هو الحل الطبيعي لمثل هذه الأحوال. اذهبي واغسلي وجهك، وأنا احضر لك فنجاناً آخر من القهوة».

شربت قهوتها بتمهّل، ممتنة لصمته ولتفهمه. وبصمت ايضا تقبّلت منه فنجاناً آخر من القهوة شعرت على أثره بتحسن كبير وكأن مشكلة ما قد حلّت. ثم تنهدت مرتاحة وقالت له وهي تشعل سيكارة تحمل الحرف الأول من اسمه مطبوعاً بالذهب:

«دعني اخبرك عن كفين. فهذا الانسان مؤلف موسيقي كان يسكن في شقة فوق تلك التي كنت اسكنها. التقينا في العام الماضي، أنا في الثامنة عشرة من عمري وهو يكبرني بعامين تقريباً. وكان آنذاك ينهي دراسته للتوزيع الموسيقي وكتابة الألحان. لم اعرف مثله في حياتي، ولم اشعر تجاه

اي رجل آخر كما شعرت تجاهه. ذهبنا معاً الى كل مكان وقمنا معاً بجميع اعمالنا، الرائعة منها والمجنونة. كان يعزف على البيانو المقطوعة التي كتبها، وكنت ارقص على الطاولة الصغيرة امامه. وكنا نتدرّب على الحركات والأنغام حتى المساء».

وتوقفت قليلا لتلتقط انفاسها وتستعيد المزيد من الذكريات، ثم تابعت حديثها عن كفين وانتاجه الموسيقي. وفجأة توقفت وقالت بابتسامة حزينة:

«حديث مزعج وموضوع سخيف بالنسبة اليك، أليس كذلك؟».

«لا ابداً. فكثير من الاشخاص لهم مشاعر رقيقة كهذه، الا ان القليل منهم حظي بنعمة ترجمتها الى كلمات رقيقة ومعبّرة ومؤثرة».

واخبرته هيلين المزيد عن كفين ومسرحيته التي تعرض في لندن. ثم اخرجت رسالة صديقتها ليزا واعطته اياها ليقرأها قائلة:

«انه سينجح وسيكون له مستقبل باهر».

قرأ جستن الرسالة بتمهل وامعان، ثم طواها كما كانت، وأعادها الى هيلين وهو يسألها:

«هل كنت تحبينه؟».

«نعم».

«وهل ستقعين مرة اخرى في الحب؟».

«لا. لن احب مرة اخرى ابداً كما احببت كفين».

ابتسم جستن وقال لها رداً على تلك الجملة التي قالتها بلهجة باردة وغير معبّرة على الاطلاق:

«ابداً؟ هل قلت ابداً يا ابنة التاسعة عشرة؟ مؤكد يا عزيزتي انك تدركين صعوبة قبولك آنذاك بالزواج من ذلك الشاب مهما بلغت درجة محبتك له. لقد اشكل عليك الفارق الكبير بين مشاطرة الرغبة في تحقيق نجاح فني وبين المشاركة التامة في حياة مختلفة كلياً. وبالمناسبة، ألم تزعجك التسلؤلات المتكررة عما اذا كان بامكانك فعلا الاختيار بين الزواج ومزاولة الرقص؟».

«نعم، فطالما سألت نفسي هل سيأتي ذلك اليوم الذي سيبادلني فيه الحب وماذا سأختار اذا طلبني للزواج. ولكن ذلك اليوم لم يأت...».

«سيأتي يوم تعرفين فيه الجواب الذي كان عليك اختياره لو طلبك كفين للزواج. صدقيني يا هيلين، لو كان شعورك حباً وبادلك كفين ذلك الحب،

فأنا أشك في انك كنت ستبكين هنا الليلة، ضاعت مهنتك أم لم تضع».

اتسعت عيناها وظلت صامتة. هل احبها كفين فعلا ولكن بطريقته الخاصة؟ وللمرة الاولى بدأت هيلين تتفحص بروية علاقة كانت تتخيل آنذاك انها لن تنتهي. لقد بدت هي وكفين قريبين الى بعضهما لدرجة ان ايا منهما كان يقرأ افكار الآخر. ولكن، ألا يعقل ان يكون ذلك القرب لا بل الالتصاق الفكري صداقة روحية وفنية وليس حباً كما تصورته؟ هل جستن على حق؟ هل كانت القضية مجرد اهتمامات متشابهة وتعاطف وتفهم؟ وبأسى، لاحظت الحقيقة المرّة في الملاحظات الحكيمة التي أبداها الرجل الموجود قربها. الحب! ما هو الحب؟ وهل بامكانها بعد الآن ان تقارن بين تلك العلاقة الغريبة البريئة مع كفين وبين ذلك النوع من الحب الذي ذكره جستن؟ ام يا ترى كانت نورين على حق عندما قالت ان الحب هو مزيج من الخيال والعاطفة والاندفاع والأنانية، او انه مجرد رغبة جامحة؟

وقفزت هيلين من مكانها متطلعة بهلع الى ساعة يدها وقالت:

«انها الثالثة فجراً. يجب ان اعود فوراً».

«سأسير معك حتى المنزل. ولكن، ولكنك ستشعرين بالبرد. ضعي سترتي عليك حتى وصولنا فلن يراك احد في مثل هذه الساعة. سأحضر سترة اخرى».

سار جستن وهيلين بصمت وبدون ان يلتفت اي منهما للآخر. وبدا أن كلاً منهما سابح في افكاره وكأنه في عالم آخر. ونسيت هيلين انزعاجها الذي شعرت به بادىء الأمر عندما شاهدها جستن تبكي قرب تلك الشجرة. وهي الآن ممتنة له وتريد ابلاغه ذلك. ولما اصبحا بمحاذاة الشجرة بعد بضع دقائق من السير العادي، تساءلت بدهشة صامتة عما اذا كان حقاً قد حملها هذه المسافة الطويلة. وماذا كان يهدف حقيقة عندما عالجها بذلك الاسلوب المميز الشبيه بالصدمة الكهربائية! ولماذا اهتم بها؟ ولماذا. . .

قطع عليها جستن استرسالها في التفكير عندما قال لها بصورة مفاجئة:

«هل ما زلت راغبة في ان اجد لك وظيفة في سلمندر؟».

«طبعاً، طبعاً. وخاصة بعد الذي حدث لي هذه الليلة».

«لم اقصد ذلك. هل انت مصممة تصميماً قاطعاً على البقاء هنا؟».

«نعم، وأظن انني أوضحت هذه المسألة».

«ماذا يمكنك ان تفعلي؟ هل تعرفين الطباعة؟ او مسك الدفاتر والمحاسبة؟ او ربما التعليم؟».

تنهدت هيلين ووجهت له نظرة شكر قائلة:

«لا، لا يمكنني ان اقوم بأي من هذه المهام مع الأسف الشديد. فمؤهلاتي لا تنفعني ابداً هنا، ما لم... ما لم اقبل العرض الذي قدمه كيت مانتون».

«لا اقترح ذلك على الاطلاق».

«اذاً، فقد فكّرت بشيء محدّد بالنسبة اليّ!».

توقف جستن عن السير ووجّه اليها نظرات يسودها القلق، ثم قال لها بهدوء:

«ما رأيك في الاعتناء بجولييت؟».

«جولييت؟ انك لا تفهمني على ما يبدو. فأنا اريد ان اعيش بعرق جبيني وأن أجد شقة خاصة بي عندما تتزوج ماريز. ليس لي دخل الآن، ووالدي لم يخلّف لي ثروة طائلة اذ انه انفق الكثير على دراستي وتدريبي».

«كنت اعتقد... من المؤكد يا هيلين ان والدك اشترى اسهماً كثيرة في شركتنا. وهذه الأسهم تتطور وتنمو بسرعة شأنها في ذلك طبعاً شأن الشركة نفسها. ألم تتحدثي مع ماريز في هذا الموضوع؟».

«لا، ابداً. لقد توفي والدي فجأة... ارجوك، لا تعتقد ان هناك اي نزاع حول الارث. كتبت لي ماريز تقول ان والدي لم يترك وصية، وانها ستخبرني كل شيء عندما تنتهي من إعداد الأوراق اللازمة...».

«حسناً، حسناً، لنتابع سيرنا فلم يعد امامنا سوى القليل».

«بالنسبة الى العرض الذي قدمته لي... ارجوك الا تعتقد انني لست ممتنة لك. فأنا احب جولييت، وأحب ان اكون معها، ولكن...».

«ولكن ماذا؟».

«اذا كنت تريدني كمرافقة ذات دوام كامل، فأنا لست مؤهلة لذلك. انت اخترعت هذه المهمة لتوّك، أليس كذلك؟».

«لا يا هيلين. اني لا اخترع شيئاً. انني ربما لم اوضح نفسي ما فيه الكفاية. فأنا لا اعرض عليك وظيفة جاهزة لتكوني مربية لطفلتي».

احتارت هيلين ثم حدقت به قائلة:

«اذن ماذا؟».

«اني اعرض عليك الزواج مني».

٦- يقظة مجنونة

هزّت نسمة خفيفة اوراق الشجر، فاحدثت همساتها دوياً قوياً في مسامع هيلين. هل حقاً طلب منها جستن فالمونت ان تتزوجه؟ هل...

«ولماذا هذه الدهشة كلها يا صغيرتي؟ كل ما فعلته هو انني قدمت عرضاً للزواج، ولا اتوقع منك ان تقفزي الى ذراعي الآن وتعلنين موافقتك الفورية».

«نعم، ولكن... الزواج؟ انا لا... وانت ايضاً...»

«الحب؟ هل هذه هي الكلمة التي تبحثين عنها؟ الا إنك لا تسعين وراء الحب، ليس الآن ولا ابداً. الم تقولي ذلك بنفسك؟ ما تسعين اليه هو السلام والطمأنينة. لقد طلبت مساعدتي وها انا اعرضها عليك، وهي الحل الوحيد الذي أراه انا لمشكلتك».

«نعم، ولكن الزواج... لم اكن اعتقد... لم اتوقعك...»

ومرة اخرى تلعثمت هيلين وفقدت القدرة على ايجاد الكلمات الصحيحة. وبعد لحظات، ادارت وجهها بعيداً عنه وسألته هامسة:

«وانت، كيف تشعر وكيف تنظر الى هذا الموضوع؟»

ردّ عليها بلهجة عملية باردة بدت قاسية الى حد ما، اذ قال:

«ماذا سأجني انا من هذه الخطوة؟ سأحدّثك بصراحة متناهية. فحتى هذه اللحظات لم يكن للزواج اي معنى محدد في خططي للمستقبل. وفي الوقت الحاضر لا يهمني سوى مصلحة جولييت ومصلحتك انت. لقد اصبحت جولييت خلال فترة مذهلة متعلقة بك الى حد كبير، وليس لدي الآن اي شك في انك تبادلينها المحبة والعاطفة. جولييت وحيدة وتحتاج اليك. وان لم اكن مخطئاً كثيراً، فانت بحاجة اليها. ومن المؤكد انك

تحتاجين في هذه الفترة من حياتك الى نوع من الاستقرار».
ظلت هيلين صامتة تفكر، فاعتقد جستن انها تتردد وقال لها:
«انا اعلم انك لا تنظرين الي نظرة حب او غرام. كذلك فانا لا اتوقع حباً منك. ولكن يجب ان تعلمي ان العلاقة الهادئة والمنطقية لها كثير من الايجابيات».
«لا اعرف، لا اعرف ما اقول».
اخذ جستن نفساً عميقاً وقال لها بلهجة جدية:
«اسمعي يا هيلين. لا تبدأي بالخوف من هذا الزواج وكأنه سجن لا يمكن الفرار منه. فهذا امر بعيد جداً عن تفكيري ونيّتي. ولأؤكد لك مرة اخرى على ان اياً منا لا يمكنه التكهن بما سيحمله المستقبل. وعليه، فاذا اي وقت شعرت فيه برغبة الانفصال عني فاني اعدك منذ الآن بانني لن اقف حجر عثرة في وجه قرارك».
«ولكن، لماذا الزواج منك؟ الا يمكنني ان اكون رفيقة دائمة لجولييت بدون، بدون ان. . . ؟».
«لا يا هيلين. ليس في هذه الجزيرة الصغيرة. بالنسبة الي شخصياً، انا لا اهتم للثرثرة الفارغة او لما يمكن ان يقال عني. انما لأجلك انت، فانا ارفض ذلك رفضاً قاطعاً».
وتذكرت هيلين بمرارة ملاحظات نورين عن المصالح المشتركة في الزواج، وقالت له بلهجة شبه غاضبة:
«ولكن، حتى لو تزوجتك، فماذا سيكون وضع جولييت؟ من المؤكد انها ستصبح اكثر التصاقاً وتعلقاً بي، والعكس بالعكس. فكيف استطيع التحرر مرة اخرى، ان اردت ذلك؟ انها لجريمة ان تعقد صفقات تتركز حول عواطف طفلة صغيرة. ثم، كيف سيكون وضعك انت؟ ماذا سيحدث مثلاً لو انت اردت العودة الى حياة العزوبية؟».
«هذا الاحتمال بعيد للغاية، بل يمكن اعتباره غير وارد».
وصمتت هيلين مرة اخرى، غير متأكدة، ولكن تشدّها قوة لا تعرف ماهيتها او وصفها. وبعد لحظات قالت له بصوت يرتجف:
«لا يا جستن، لا يمكن لهذا الزواج ان يتم».
«بالنسبة اليك ام بالنسبة الي؟»

«ليس لأجل اي منا، بل لأجل جولييت».
«انت تحبين جولييت، اليس كذلك؟».
«احبها كثيراً، ولذلك فلن اسمح لنفسي او لك بايلامها».
تنهد جستن وقال لها بحنان:
«الحقّ معك. وعليه، فقد كان شرطي ان تظلي معي ثلاث سنوات على الاقل، يجب عليّ بعدها ارسال جولييت الى انكلترا لبدء دراستها الثانوية. واذا قررت عندئذ الانفصال عني يكون ذلك... اعني انه... ما اود ان اقوله هو انه مهما كانت النتيجة التي نتوصل اليها، فاني امل في الا يؤثر ذلك على صداقتك ومحبتك لجولييت».
استمعت اليه هيلين بعصبية وانزعاج، ثم صرخت به:
«كيف تسمح لنفسك بوضع تصاميم فنية ومواعيد زمنية لأقدار الناس؟ كيف تبدأ بالتخطيط لانهاء زواج لم يتم بعد؟».
«لا يا هيلين. الا ترين ما ارمي اليه؟ انا لا احاول انهاء اي شيء. انا لا احاول الا ايجاد موقع آمن ومضمون لك، مع افساح المجال لك انت بالتحرر منه ساعة ترتأين، بالنسبة الي فليس هناك اي تفكير على الاطلاق بانهاء زواجنا... هذا اذا وافقت على الزواج مني».
احنت هيلين رأسها واخذت أفكارها تتصارع بين الخوف والعاطفة. ثم قالت بلهجة الضائع:
«لا ادري. لا ادري بماذا اجيبك. لم اتوقع مثل هذا...»
«لا تقولي اي شيء قبل ان تمعني التفكير في هذه المسألة وتخصصي لها الوقت الكافي لدرسها وتحليلها. آه، يجب ان نتابع سيرنا، فلقد تأخرنا كثيراً».
وعلى مدخل الفيللا قال لها بهدوء، وهو يتفحّص نظراتها القلقة:
«لا حاجة لأن تكوني خائفة ومذعورة هكذا. انا لم اصدر بحقّك حكماً بالسجن مدى الحياة. وما عليك الا ان تقولي لا».
«الزواج يجب ان يكون حكماً مؤبداً. هذا على الاقل ما كنت اتخيّله دائماً. يجب ان يكون حكماً بالسعادة والفرح مدى الحياة».
«الزواج هو ما يريد اثنان تحقيقه. اما الكمال فهو صعب المنال، والاصعب هو المحافظة عليه. انت متعبة جداً الآن ويصعب عليك اتخاذ

القرارات. ولذا فانا اقترح عليك نسيان هذا الموضوع وارجاء التفكير فيه حتى يوم آخر. تصبحين على خير يا عزيزتي».

«تصبح على خير. اوه... هذه سترتك، شكراً».

دخلت المنزل بهدوء وحذر خوفاً من ازعاج ماريز التي كانت على ما يبدو تغط في نوم عميق. ولدى وصولها الى باب غرفتها، سمعت زوجة ابيها تقول لها بقلق:

«هيلين! اين كنت طوال هذا الوقت؟ هل تعرفين كم هي الساعة الآن؟ كيف تغادرين الحفلة بمثل تلك السرعة وبدون ابلاغنا بشيء؟»

«انا آسفة جداً. لم افكر. كانت خطوة عفوية».

«ولكن، اين كنت حتى هذه الساعة؟ وكيف عدت الى البيت؟ لم اسمع صوت سيارة».

«عدت سيراً على الاقدام. اعتذر لازعاجك».

«مشياً؟ وحدك؟ في مثل هذه الساعة؟»

«جستن اوصلني حتى الشرفة الأمامية».

«اذاً كنت في بيته! هل كان هناك اشخاص آخرون؟»

في تلك الاثناء كان التعب والارهاق قد اوصلا هيلين الى مرحلة تقارب الانهيار، فقالت لماريز وهي تدخل غرفتها:

«اصابني صداع قوي اثناء الحفلة... وكان الجو حاراً جداً. شعرت برغبة قوية لتنشق هواء نظيف، فمشيت باتجاه الشاطىء. التقيته صدفة وذهبت معه لنشرب فنجاناً من القهوة».

لحقت بها ماريز الى داخل الغرفة وقالت لها بجدية وعصبية:

«اتمنى ان تتذكري انك لست في لندن. فمن المؤكد انك لاحظت سرعة انتشار الشائعات والاقاويل في هذه الجزيرة الصغيرة. وكنت مع جستن فالمونت بالذات! لقد بدأ الناس يتحدثون عن الاوقات الطويلة التي تمضينها هناك مع تلك الطفلة».

«ولكن والدها ليس هناك معظم الوقت».

«أنا اعرف ذلك. ولكن الجميع كانوا يتساءلون هذه الليلة عن المكان الذي ذهبت اليه. لقد كانت الساعة تقارب الثالثة عندما ذهب جميع الضيوف وانت لم تأتي بعد. لا تظني يا حبيبتي انني امانع في تمضيتك الوقت

الذي تريدين خارج البيت. ولكن ازعجني كثيراً ان اسمع تلك الانسانة المزعجة ايرين سندانا تقول انك اقتحمت قلاع جستن فالمونت خلال وقت قياسي».

«ماذا؟ ماذا تعنين بهذا الكلام الجارح؟»

«من المؤكد يا عزيزتي انك لا تتوقعين ان أصدق انك بريئة مثل تلك الفتاة الصغيرة جولييت! ثم ان فالمونت موضع ظنون الناس واقاويلهم منذ وفاة زوجته».

اشتعلت عينا هيلين بالغضب، ونسيت تعبها ونعاسها، وصرخت قائلة:

«كيف تجرؤ السيدة سندانا على هذا القول؟ لم احب هذه الانسانة منذ البداية، ولا افهم كيف تعتبرينها احدى صديقاتك. ثم، ليس من شأنها ابداً كم من الوقت امضي مع جولييت، او حتى مع جستن فالمونت».

«لا فائدة يا عزيزتي من التفكير بردّ الكيل للسيدة ايرين. فهي وزوجها اغنى واقوى نفوذاً من بقيتنا مجتمعين، باستثناء فالمونت. من المؤسف حقاً انها تقيم اكبر الحفلات وافضلها. ومن سوء الحظ انها كانت تنوي مصاهرة جستن فالمونت، ولكن الزواج لم يتم ولذلك تركت ابنتها لوسي هذه الجزيرة».

جلست هيلين على سريرها حزينة ومضطربة، مما حدا بماريز للاقتراب منها لتقول لها:

«لا تدعي هذه الامور تقلقك. ولكن من الافضل لك على المدى الطويل الا تكثري من اجتماعاتك بجستن فالمونت او بابنته جولييت».

«ولم لا؟ فهو ليس متزوجاً وانا كذلك. لماذا يثرثر الناس؟ علاقتنا ليست من شأنهم».

«نعم، اعلم ذلك. ولكني لا ارى اية نتيجة من هذه اللقاءات. تقبّلي نصيحتي ولا تتورطي اكثر من ذلك مع فالمونت».

«ولكني. . . ولكني سأتزوجه».

عندما جلست ماريز الى طاولة الغداء والدهشة لا تزال على محيّاها، تأكدت هيلين انها لم تكن تحلم بموضوع الزواج وباعلانها المتسرع لزوجة ابيها بانها ستتزوج جستن.

ولكن كيف يمكنها الزواج من جستن؟ فهي لا تحبه، وهو لا يحبها. فما جرى له عندما عرض عليها الزواج؟ وهل كان فعلاً عرضاً للزواج ام للشراكة؟ هل لا يزال اليوم على وعده ام انه ندم على ذلك؟

«هذه هي المرة الثالثة التي تضعين فيها السكر في القهوة. من المؤكد انك عاشقة... مع انه لا يبدو عليك ذلك. ام يا ترى انها صدمة متأخرة!»

آه لو تعرف نورين كم هي محقة في هذا التحليل الذي اطلقته مازحة وبدون اي تفكير. ثم فوجئت بها تقول ضاحكة:

«مبروك. يبدو ان سبحة الاعراس قد كرّت. ما هو نوع الخاتم الذي ستختارين؟»

«خاتم! لا ادري بعد. انا...»

قاطعتها ماريز ناصحة اياها بنوع معين، ثم قالت لها بابتسامة مرحة حلّت محلّ العبوس والانقباض:

«انه لأمر مثير حقاً. انتظري حتى تسمع ايرين سندانا بنبأ الزواج. بالمناسبة، ما هو الموعد المقرر؟»

لم تعد هيلين تبالي بالسيدة سندانا أو بأقاويلها اللاذعة. ففي الوقت الحاضر ينصبّ اهتمامها كله على المستقبل القريب ومغزى السؤال الذي وجّهته ماريز. تنهدت قليلاً وقالت لزوجة والدها بهدوء وصوت منخفض:

«لا اعرف. من المبكر جداً تحديد مواعيد. فانا حتى لم...»

«نعم، بالطبع. فقد حدث كل شيء فجأة. ولكن.. ولكن ما رأيك يا حبيبتي في ان نجعلها مناسبة مزدوجة؟ الن تكون حدثاً رائعاً؟ هل تظنين ان جستن ستعجبه الفكرة؟»

شعرت هيلين بانقباض شديد. انها لا تعرف الا القليل عن جستن، ومع ذلك فهي شبه متأكدة من ان اقتراح ماريز لن يلقى قبولاً منه بل قد يواجه معارضة قوية. وعادت ماريز الى الحديث:

«وهذا الموضوع ايضاً يمكن البحث فيه لاحقاً. سيكون علينا الآن الاعداد لحفلة اخرى. ترى ماذا سيقولون؟».

«لا ارجوك، ليس الآن. لا تقولي شيئاً لأي كان. فانا لم... لم أبلغه بعد بموافقتي».

جاء رد الفعل الأول من نورين، التي مشت باتجاه الباب قائلة:
«تعنين ...تركته في حيرة لا يعرف كيف سيكون جوابك؟ اذاً هذا هو الدور الذي تلعبينه ايتها العزيزة! انك لست الفتاة البريئة والبسيطة التي تخيّلتها. ولكن احذري يا حبيبتي. ان كنت تريدينه، فلا تلعبي هذا الدور لمدة طويلة لأنه قد يفلت من يديك».
ذهبت هيلين الى الشرفة واخذت تسير على غير هدى. ثم وقفت في الزاوية وأخذت الافكار والتساؤلات تضج في رأسها: كيف لها ان تفكّر بوعي وتعقل، وان تتخذ القرارات الصحيحة؟ كيف ستلتقي جستن ذلك اليوم وماذا ستقول له؟ ماذا يتوقع هو منها ان تقول له؟ هل كان يعني حقاً ما يقول؟ هل...
لحقت بها ماريز الى الشرفة وتأملتها ملياً ثم قالت لها فجأة:
«انت لا تفكّرين باتخاذ قرار عاجل بسبب زواجي انا من كيت؟ لقد انتبهت قبل لحظات لهذه الامكانية. ولكن تأكدي ان مثل هذه الخطوة يجب الا تحدث اي تغيير. من الطبيعي اننا سنبيع هذا المنزل وانتقل الى منزل زوجي الجديد. وستبقى نورين معنا الى ان تتزوج، وكما اظن فانها لن تتأخر في ذلك. اهذا ما يقلقك يا عزيزتي؟ ما اعنيه هو انك ان لم تكوني متأكدة من شعورك تجاه جستن...»
حدّقت هيلين لفترة في عيني ماريز بدون ان تقول شيئاً. انها فعلاً مهتمة اهتماماً صادقاً بها، مع ان تحليلها لم يكن صحيحاً تماماً. وتابعت ماريز حديثها:
«انا متأكدة من انه بامكاننا القيام بخطوة ما بالنسبة الى سكنك. ما اعنيه بوضوح اكثر هو انك لست مضطرة للزواج ان كان هدفك فقط عدم الوقوف في وجه خططنا وقراراتنا».
«اعرف ذلك تماماً. لقد كنت طيبة للغاية معي واتمنى من كل قلبي ان تكوني سعيدة جداً مع كيت. ولكني لن اسمح لنفسي ابداً بان اسكن معكما لأن ذلك سيكون تصرفاً انانياً وغير عادل على الاطلاق».
ومرت ساعات ما بعد الظهر بطيئة ومليئة بجو التوتر والقلق والتحليل المؤلم. كيف ستلتقي به اليوم؟! كيف ستواجه رجلاً لا يعتبر الزواج سوى خطة متفق عليها بين الطرفين ويمكن الغاؤها برضى متبادل؟! وقبل المغيب

بقليل مشت هيلين على الشاطىء باتجاه الفيللا ميموزا، ولكنها لم تشاهد جستن او تسمع ضحكات جولييت. فعادت ادراجها وقد زادت عليها صعوبة اتخاذ القرار. ان الكرة الآن في ملعبها. فجستن قام بخطوته، وعليها هي الآن التحرك. . . اما باتجاهه او بعيداً عنه.

عادت هيلين الى البيت وهي تشعر بارهاق وانقباض. دخلت قاعة الجلوس ومدّت يدها لاشعورياً الى مفتاح النور ولكنها لاحظت ان هناك ضوءاً جانبياً ربما نسيته ماريز قبل ذهابها لملاقاة كيت.

«جستن!»

وتجمدت هيلين في مكانها بدون ان تضيف كلمة واحدة على الاسم الذي اطلقته بصرخة خوف وذعر. استدار الرجل الطويل، الذي كان يقف امام النافذة، وهرع نحوها قائلا:

«هيلين اعذريني. هل اخفتك كثيراً؟ انا آسف جداً، لقد كنت انتظرك من الباب الأمامي».

«لقد دخلت من الباب الجانبي. لم اكن اظن. . . انك ستأتي».

«اصرّت ماريز ان انتظرك هنا، قائلة انك لن تتأخري. لم نرك اليوم، وقد اشتاقت اليك جولييت كثيراً».

«هل تركتها وحدها؟»

«لا، روجر معها. روجر درو مساعدي الذي عاد لتوه من عطلته السنوية. وهو موجود عندنا منذ الظهر، وهذا هو السبب الوحيد الذي حمل جولييت اليوم على البقاء بعيداً عنك. ما رأيك بزيارتنا الآن والتعرف على روجر في الوقت ذاته؟»

ولما قبلت دعوته ابتسم للمرة الاولى منذ دخولها القاعة. وقال لها مازحاً:

«ولكنك سوف تضطرين لاستخدام قدميك، اذ انني لم احضر السيارة».

«لا بأس على الاطلاق. انا افضل السير على ركوب السيارة وخاصة في امسيات جميلة كهذه».

استقبلتها جولييت بحرارة، قائلة انها كادت تفقد الامل بوصولهما. ثم اخذت كلاً منهما بيد الى غرفة الطعام، حيث كان روجر يساعدها في اعداد

مادبة لأربعة اشخاص، وقالت:
«أليست رائعة؟ ان العم روجر يساعدني منذ البداية».
قبّلتها هيلين بشوق وحنان، ومدت يدها لمصافحة روجر في حين كان جستن يتولى مهمة التعريف بينهما. انه شاب لطيف ومهذب لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. وقد فهمت من جستن، اثناء غياب روجر وجولييت في المطبخ لاعداد الحساء، انه يتمنى من صميم قلبه لو تمكن روجر من تجديد عقده المحدد بعامين لأنه ذكي جداً ومخلص الى ابعد الحدود. اما اذا رفضت خطيبته العيش في سلمندر...
وتناول الجميع طعام العشاء ثم اشتركوا جميعاً في تنظيف المائدة، ذلك ان ألي وطوم كانا يومئذ في اجازتهما الاسبوعية. وبعد تناول القهوة نظر روجر بأسف الى ساعته، في حين قال جستن لابنته بلهجة جادة:
«الى النوم يا حبيبتي. لقد قمت بعمل رائع هذه الليلة والاّ فإنك تتاخرين كثيراً عن موعد نومك».
«هل حقاً تأخرت الى هذا الحد؟»
«اكثر من ساعتين يا آنستي. لو عرفت جدتك بما يحدث هنا فانها ستستقل اول طائرة قادمة الى سلمندر لتعلمنا كيف نتصرّف».
قهقهت جولييت وقالت ان جدتها لن تفعل ذلك ابداً لانها تخاف جداً من الطائرات. ولما رأى جستن ان جولييت تتهرب من الذهاب الى فراشها، حذرها قائلاً:
«عشر دقائق فقط، يجب ان تكوني بعدها في فراشك تغطين في نوم عميق، والا فاني...»
قاطعه روجر بأدب قائلاً، وهو يرتدي سترته استعداداً للذهاب:
«انها طفلة رائعة. اختي الكبرى لديها طفلان يعذّبانها كثيراً. آنسة سلفاين، هل يمكنني ان... ان اوصلك الى منزلك؟»
«شكراً يا روجر. ساوصل هيلين بسيارتي عندما ننتهي من توضيب امورنا».
«اوه، طبعاً. سأذهب الآن. شكراً جزيلاً على هذه السهرة الرائعة. لقد استمتعت للغاية باليوم الأول لعودتي».
بعد ذهاب روجر بلحظات، تطلع جستن نحو هيلين قائلاً:

«اعذريني قليلاً لأساعد جولييت على النوم. او بالاحرى. . . ما رأيك في آن تتولي انت مهمة المربية عني في حين اعمل انا في اعداد القهوة؟»
ظلت هيلين صامتة لبضع لحظات. وفجأة شعرت بان ردّها على ذلك السؤال الهامشي سيكون اختياراً رمزياً بين القبول او الرفض. وبثبات الانسان الواثق من نفسه قالت له:
«سأهتم انا بجولييت».
وبعد ان تمنى كل منهما ليلة سعيدة للفتاة الصغيرة، عادا الى قاعة الجلوس وبادرها جستن بالسؤال:
«لقد قررت القبول، اليس كذلك؟»
ابتسمت بحياء وأحنت رأسها بخجل، فهب واقفاً يسألها بفرح:
«متى؟ متى نتزوج؟ اعني متى تنتهين من اعداد ما يلزمك للزواج؟»
«لا اعتقد اني بحاجة الى اي شيء. فقد ابتعت كمية كبيرة من الملابس قبل حضوري من لندن. . . باستثناء. . . باستثناء ثوب الزفاف».
«هل تريدين مراسم الزفاف كاملة؟ اعني الثوب الابيض والعرائس الصغيرات، وحفلة استقبال لنصف اهل الجزيرة؟»
«ستكون مسرحية ساخرة لو فعلنا ذلك».
«اهكذا تنظرين الى موضوع زواجنا؟»
«أنا آسفة. ولكني لا اعتقد بان هذه الامور تتمشى مع الصفقة التي عقدناها».
«آه، حسناً. امكانية التحرر من الارتباط في اي وقت. لقد كدت انسى ذلك. هل نعقد زواجاً مدنياً؟»
«أعتقد. . . اعتقد ان ذلك افضل».
«اذا، فلا داعي لأي تأخير غير ضروري. سأرى غداً صباحاً ايٌ من القضاة الثلاثة يمكنه عقد قراننا. لنحدد منذ الآن موعداً لذلك».
قال جملته تلك بمزيج من الأسى والبرودة. ثم فتح مفكّرته وتابع حديثه وكأنه يتحدث الى مساعده او اي شخص آخر، وليس الى انسانة يريد الزواج منها:
«انا مضطر لمغادرة الجزيرة في العاشر من هذا الشهر، والمسؤولون في اللجنة الزراعية سيصلون في اواخره، و. . .»

وتاهت افكارها هنا وهناك. وارادت ان تصرخ في وجهه انها تريد زواجاً بكامل مراسيمه. وتساءلت هل هي في حلم مزعج ام في يقظة مجنونة؟ وكيف يمكنها ان تصدق انها قادرة على المضي قدماً في هذه المسألة الجدية وبمثل هذه السرعة؟ وبكت بصمت حزين. لا، لا يمكنها الزواج بدون حب مهما كانت الاسباب.

«هيلين، هيلين. ما بك؟ ارجوك لا تنظري الي هكذا وكأنك تخافين مني. اسمعي يا عزيزتي. لا زلنا في اول الطريق ويمكنك التراجع الآن وبكل سهولة. اخبريني، هل عدلت عن القبول وتخافين ابلاغي بذلك؟»

«لا، لا، لم اغير رأيي. ولكني... ولكني. أنا آسفة. كيف يمكن ان اشعر بالخوف منك؟»

ابتسم جستن وقال لها بحنان:

«عقول النساء غريبة عجيبة وكثيرة التقلّبات. صدقيني ان كل شيء سيكون على ما يرام، وستعتادين على الفكرة. اعطيها بعض الوقت. ثقي بي ولن تندمي».

احضر جستن القهوة، وكانت مشاعرها تتخبط بين الخوف والارتعاش والحيرة. وبدت القهوة باردة كالثلج بالمقارنة مع نار الحقيقة التي كانت تحرق قلبها. واخيراً ظهرت الحقيقة واضحة كنور الشمس. لماذا قبلت بالزواج منه على الرغم من جميع المصاعب والآلام؟ لأنها... لأنها تحبه.

ووجه اليها جستن نظرات الحنان الرقيقة نفسها التي يوجهها... لابنته جولييت.

٧- عودة السكين

تقرر موعد الزواج يوم الجمعة، وقررت ماريز، برغم اعتراضات هيلين، اقامة حفلة استقبال صغيرة. وبدأت هيلين تتساءل اذا كان بامكانها ان تشعر بالواقعية مرة اخرى. فقد بدا ان الاحداث المتلاحقة اخذتها على حين غرة وجرفتها الى نقطة اللارجوع.

وشكرت هيلين ظروف العمل التي ارغمت جستن على التغيّب طوال الايام الثلاثة التي سبقت موعد الزواج. فقد اصبح من الصعب جداً عليها التحدث اليه، او ان تكون معه وهي تحاول الاحتفاظ بهدوء طبيعي بعيد عن المشاعر. لم تعد تفكر الا فيه وبحياتها معه. ولكنها قررت اخفاء امر واحد عنه، هو مدى شعورها الحقيقي نحوه.

وبرزت مشكلة الاهتمام بجولييت اثناء غيابها لأيام قليلة عن الجزيرة. واقترحت ماريز ان تنتقل الفتاة الصغيرة الى منزلها منذ اليوم الاول لسفر جستن، وتظل هناك برعايتها لحين انتهاء مراسم الزواج، وعودة العروسين من رحلتها القصيرة الى دورين.

لم يعترض جستن كثيراً على بقاء جولييت في منزل ماريز خلال وجود هيلين، الا ان فكرة تركها وحدها مع ماريز لم ترق له على الاطلاق:

«مع الاحترام الكامل لزوجة ابيك وتقديري لها على دعوتها الكريمة، الا انها تمضي معظم وقتها، وخاصة اثناء الليل، خارج المنزل».

وتنهدت هيلين لأنها تعرف تلك الحقيقة. وبعفوية بالغة اقترحت عليه اخذ جولييت معها. وقد ادهشها ردّ فعله المفاجىء.

«اثناء شهر العسل؟ لا شك في انك تمزحين».

«لا ابداً. فلماذا لا نأخذها معنا؟ ستكون الرحلة عطلة اضافية

ومتحبها للغاية».
ردّ عليها بلهجة شبه غاضبة قائلا ان من شأن ذلك افساح المجال امام سنّد . سلمندر للتندر بتصرفاتها. ولما سألته عما اذا كانت تلك الثرثرة والاشـ ت تقلقه، اجابها قائلا:
«ابدا على الاطلاق. ولكني لم اكن افكر بنفسي».
«وانا كذلك. كنت افكر بما هو الافضل لجولييت».
«لم اكن اريد ان اضيف الى مسؤوليات ألي مهمة جديدة كرعاية جولييت، خاصة انها تعمل على اعادة ترتيب البيت بصورة جذرية. ولكني الان لا ارى بديلا عن ذلك».
وقبل ان يقرر جستن ابلاغ ألي، حضرت السيدة رالي، زوجة المفوض العام، لتسأل عما سيفعلان بجولييت اثناء غيابهما. وعندما اخبرها جستن بانها ستبقى بعهدة ألي، اصرّت على دعوتها لتمضية الايام الخمسة معها إذ تكون برفقة ولديها الصغيرين.
صباح الثلاثاء ذهبت هيلين وجولييت لوداع جستن. وقبل ان يركب الطائرة، التي ستقله الى موريشيوس، استدار نحوهما وعانقهما في آن واحد قائلا:
«انتبها لبعضكما البعض اثناء غيابي».
شعرت هيلين بضيق شديد وكأنها فقدت شيئاً عزيزاً على قلبها وهي تشاهد الطائرة تختفي في الفضاء. ثم ارغمت نفسها على الابتسام وقالت لجولييت:
«يجب ان نعود الان ونعمل على نقل بعض الاشياء التي ستحتاجين اليها اثناء وجودك معنا».
«كم اتمنى ان يكون هذا اليوم يوم الخميس، يوم عودة والدي. واكثر من ذلك، اتمنى ان نكون الآن في يوم الاربعاء من الاسبوع المقبل، اي عندما تعودان معاً من رحلتكما».
بدت فيللا ميموزا مهجورة بغياب جستن. ومما زاد في ذلك عملية التنظيف والترتيب التي تقوم بها ألي. وقد دفع هذا الشعور بهيلين للاسراع في اعداد الاشياء القليلة التي ستحتاجها جولييت خلال اقامتها ثلاثة ايام خارج الفيللا.

قبل الثامنة بقليل كانت جوليت تنام في سرير اضافي وضعته ماريز في غرفة هيلين. وبعد ساعتين تقريباً دخلت هيلين غرفتها على رؤوس اصابعها، كي لا تزعج صديقتها الصغيرة. وفجأة فتحت جوليت عينيها وجلست في السرير تحدّق في الجدران. اقتربت منها هيلين بسرعة وسألتها:

«هل كل شيء على ما يرام يا حبيبتي؟»

«نعم... نعم. ولكني نسيت اين انا عندما استيقظت».

«انا آسفة لايقاظك. بالمناسبة، انه امر عادي ان يشعر الانسان بشيء من الغرابة عندما يستيقظ ليلا في مكان غريب».

«هل خالجك مثل هذا الشعور في اليوم الأول لوصولك الى سلمندر؟»

«لا، ليس هنا. ولكني شعرت بذلك عندما ذهبت للمرة الاولى مع فرقة الباليه الى مدينة في شمال انكلترا».

واخذت هيلين تقصّ عليها ما حدث لها في تلك الليلة. وبعد بضع دقائق قبّلتها، وقالت لها ان الوقت قد حان للعودة الى النوم. ابتسمت جوليت وقالت لها بمحبة وحنان:

«انك تروقين لي كثيراً. فانت الشخص الوحيد الذي لم يأمرني بالنوم فوراً، ولم يبدأ في التذمر من انني لن استطيع النهوض باكراً للذهاب الى المدرسة».

«ولكن، هذا ما كنت على وشك ان اقوله لك خاصة ان مدرستك هنا تبدأ في وقت مبكر. ثم انها العاشرة والنصف يا حبيبتي».

هزت جوليت برأسها علامة القبول والاقتناع، وقالت:

«ولكني احب التحدث عندما لا اشعر بالنعاس. ابي هو الانسان الوحيد الذي يحادثني عندما لا اتمكن من النوم. ألي تتذمّر وتتضايق، وجدتي كانت تغضب احياناً».

دفنت جوليت رأسها في الوسادة واخذت تتأمل هيلين وهي تحضّر نفسها للنوم في السرير المجاور. ثم قالت لها ببراءة:

«هل ستتكدّرين مني او تتذمّرين من تأخري في النوم عندما تأتين للسكن معنا؟»

«سأحاول الا افعل ذلك».

«وهل ستأتين انت وابي للتحدث معي قبل النوم؟»

اجابتها هيلين بالايجاب، ثم تمنت لها نوماً هنيئاً وليلة سعيدة. وبعد دقائق من الصمت التام، خيّل لهيلين ان جولييت تغط في نوم عميق، سألتها الفتاة بهدوء وخجل:

«ماذا سأدعوك عندما تتزوجين ابي؟ ألي قالت ان من غير اللائق ان اناديك باسمك الاول. ولكني سأجد انه من الغرابة بمكان ان ادعوك امي، مع انك ستصبحين امي عندئذ. كذلك، فاني لا احب مناداتك بخالتي كما ينادي الاولاد زوجات آبائهم».

لم تجب هيلين لفترة طويلة، مما حدا بجولييت الى القول بتأثر:

«هيلين، هل اغضبتك بهذا الكلام؟ اعني اني... اني لم اقصد ان اكون وقحة، بل اردت ان...»

«اعرف يا حبيبتي ما كنت تقصدين. ولكني لم اجد الجواب بالسرعة اللازمة. فمما لا شك فيه انني لا احب تسمية الخالة، وكذلك فسوف اشعر ايضاً بالغرابة لو تظاهرت بأنني امك. ولذا، فانا اعتقد ان ألي مخطئة ويخطىء اي شخص آخر يكون له تفكير مماثل. لو لم تكن هناك معرفة سابقة وعلاقة وثيقة، لكان الامر مختلفاً».

«لقد صوّرت الموضوع لنفسي على هذا الشكل تماماً. ولكني لم ارغب في ان اسأل ابي...»

«لا تدعي هذا الموضوع يشغل بالك يا حبيبتي. تذكري انني احبك كثيراً، وانني ساحاول دائماً ان ارعاك واهتم بك كأن امك لا تزال موجودة معك. والآن... يجب ان تنامي».

«حسناً. هيلين... هل يمكنني ان انام معك؟ هذه المرة فقط؟»

انتقلت جولييت الى سرير هيلين وضمّتها بحنان قائلة انها في غاية السعادة لأن والدها اختارها زوجة له. وخلال لحظات كانت تغط في نوم عميق. اما هيلين فقد ظلت تفكر لبعض الوقت. فزواجها من جستن فالمونت اصبح حقيقة واقعة ولم يعد احد احلام اليقظة. وخلال ايام معدودة، ستحل محل الام التي فقدتها جولييت ولم تعد تتذكرها. كيف لها بعد الآن ان تقدم على اية خطوة تزعج جولييت، او تلك الثقة العمياء التي منحتها اياها بمحبة خالصة وتعلّق شديد؟ ولكن، ماذا ستفعل بزواج يتم بدون حب وعلى شكل صفقة تجارية؟ كيف ستكون نظرتها الى جستن؟

وماذا عن قلبها هي، ومشاعرها؟ و. . .

«والان ايتها الزوجة العزيزة، يمكنك ان ترتاحي من عناء الاعدا للزواج ومراسيمه وحفلاته. سنصل الى دوربن باذن الله قبل دقائق مر موعد العشاء، وبعد ذلك اربعة ايام من الهدوء والراحة».

قالها جستن بلهجة طبيعية وودّية، وقد استرخى في مقعده واشعل سيكارة بعد ان طلب من المضيفة فنجانين من القهوة. ثم تطلع الى خاتمه الذهبي البراق وقال مبتسماً:

«سنختار الخاتم الآخر في دوربن حيث مجالات الاختيار اكبر وافضل من تلك المتوفرة في سلمندر. يجب ان تزيّني اصبعك بخاتم خطوبة مع ا كان علي التفكير بهذا الموضوع قبل عدة ايام».

«وهل ذلك ضروري؟»

«طبعاً، اذ ان خاتم الخطبة هو جزء لا يتجزأ من مراسم ما قبل الزواج».

صمتت هيلين مرة اخرى وهي تقاوم رغبة قوية تتفاعل في نفسها وتكاد تدفعها الى الطلب منه بان يكف عن التظاهر، اذ انه لم يعد بحاج لذلك. ثم فتحت مجلة اجتماعية وتظاهرت بانها منهمكة في قراءتها. لقـ تمت الصفقة وجرى توقيع العقد المبرم بينهما، واصبحت السيدة فالمونت مراسم الزواج كانت مقتضبة جداً، اقل من عشر دقائق في غرفة صغير بحضور القاضي والشاهدين ماريز وروجر، ثم وداع قصير في فيللا ميمو اقتصر على عدد من الأشخاص.

كانت المراسم عملية وباردة، وكان الجميع وكأنهم يمثلون ادوا مسرحية باستثناء جوليت التي بكت في المطار وتمنت عليهما ان يعودا بسر وان يبعثا لها برسالة او ببطاقة بريدية كل يوم. وفجأة شعرت هيلين ا الايام الأربعة التي ستمضيها في دوربن تبدو وكأنها سنوات او دهور. لقـ تمنت ان تنتهي ايام ما قبل الزواج بسرعة كي تتخلص من ذلك الاهتمـ المؤقت والمصطنع الذي كانت محوره. اما الان فانها تتمنى لو ان الايـ المقبلة لم تكن.

وصلا الى دوربن وتوجها بالتاكسي الذي كان بانتظارهما في المطار واخذت هيلين تتفرج بشغف على تلك المدينة الرئيسية في منطقة شـ

استوائية. وابتسم جستن قائلا، وهو يوقف السيارة امام الفندق الذي سينزلان فيه:

«المدنيّة مرة اخرى. سلمندر ستبدو كقرية موحشة بعد الفترة التي سنمضيها هنا».

خرجت هيلين الى شرفة الجناح الذي حجزه جستن قبل عدة ايام، وراحت تتأمل الحديقة الغناء وبركة السباحة الرائعة. وما هي الا لحظات حتى لحق بها جستن الى الشرفة الصغيرة قائلا:

«لقد طلبت لك ابريقاً كاملا من الشاي، اعتقاداً مني بأنه الشيء الذي تريدينه اكثر من غيره الآن. وسوف اعود خلال فترة قصيرة جدا».

«وهل انت ذاهب الآن؟!».

ابتسم جستن وقال لها بحنان:

«لنصف ساعة فقط. من المؤكد انني سأعود قبل انتهائك من شرب الفنجان الثاني».

خرج جستن قبل ان تتمكن هيلين من ابداء اية ملاحظة. فما كان منها الا انها اخذت تسير في انحاء الجناح-الفخم شاردة الذهن لا تعرف بماذا تفكّر. وما هي الا لحظات حتى سمعت صوت الخادمة تسألها:

«هل تريدين الشاي على الشرفة يا سيدتي؟»

هزّت برأسها علامة الايجاب وخرجت الى الشرفة لتتناول الشاي وتغرق في تساؤلات عن سبب ذهاب جستن في ذلك الوقت. من المؤكد انه لم يذهب للقيام بعمل ما يتعلق بشركته او بأعماله. كما انه لم يتحدث عن وجود اصدقاء له في دوربن يجب ملاقاتهم. اذن، فأين ذهب ولأي سبب؟

تنهدت هيلين وهي تشرب الشاي الفاخر، متجاهلة المأكولات الخفيفة وقطع الحلوى الصغيرة الموجودة امامها وقالت لنفسها انه ليس من حقها ان تسأل عن مكان وجوده او سبب ذهابه. فهما ليسا في شهر عسل حقيقي، ووجودهما هناك هو جزء من الخطة المتفق عليها. وقد وفى جستن بكل ما عليه من الصفقة المعقودة بينهما، وبصورة رائعة حقاً. وحان دورها الآن لتنفذ حصتها من الشروط وبدون اي انانية او مطالب.

مضت الدقائق الثلاثون ولحقت بها خمس عشرة اخرى ولم يعد جستن. فقررت هيلين الهاء نفسها بافراغ حقيبتها، علّ ذلك يبعد عنها ولو قليلا

شعور الوحدة الذي بدأ ينتابها. وما ان بدأت حتى دخل جستن وحيّاها معتذراً عن تأخره ربع ساعة. وبعدما خلع سترته سألها عما اذا بقي شيء من الشاي فأجابته:

«لا تزال هناك كمية كبيرة من الشاي، ولكنني اعتقد انه لم يعد ساخناً بما فيه الكفاية».

«لا بأس. لنذهب الآن الى بركة السباحة فننتعش قليلا قبل توجهنا لتناول العشاء».

اثناء وجودها في الماء، اخذت هيلين تفكّر بوالدة جولييت. كيف كانت يا ترى؟ شقراء ام سمراء؟ خجولة ام مرحة؟ هادئة ام... وتذكرت انها لم ترَ أية صورة للسيدة الراحلة في فيللا ميموزا. لا بل انها لم تلاحظ اية لمسة نسائية يمكن ان تعطي انطباعاً عن شخصية تلك الانسانة التي شاركت جستن حياته لفترة من الزمن. فكل شيء داخل المنزل وخارجه يوحي بأن جستن لم يسمح لها بمشاركته القرار، او ربما بابداء الرأي، حتى في الأمور التي من المفترض ان تكون من مسؤولية السيدات. وعادت الى ذاكرتها جملة قالها لها في وقت سابق:

«لم يكن للزواج ابداً اي دور في مخططاتي للمستقبل....».

هل كان الحب المتبادل بينهما قوياً لدرجة ان اي حب آخر لا يمكن ان يحل محله؟ وهل من الممكن في يوم ما ان يحبها هي كما احب والدة جولييت؟ وفي المساء اخذت هيلين تتأمل تصرفات جستن تجاهها. فقد ظهر جلياً منذ عودتها من السباحة انه حدد بصورة جازمة النمط والاسلوب اللذين سيتبعان خلال تلك الامسية. كان يتصرف معها بروح من الصداقة والود والاهتمام... وبشيء من حماية الابوّة. وكم كانت تود لو انه يتطلع اليها ولو لفترة وجيزة كامرأة بحاجة للحب. وتمنت في لحظة غضب صامت ان يتصرف معها ببرودة او بعدم اهتمام كلي... او حتى بقسوة. فلربما دفعها هذا التصرف الى اخفاء ضعفها تجاهه او حتى الى اقناع نفسها بعدم جدوى التعلق به.

وبتأثر بالغ ويدين مرتجفتين اخرجت هيلين العقد الذي اعطتها اياه جولييت كهدية زواج. واخذت تتأمله بحنان متخيلة تلك الفتاة الصغيرة التي من المؤكد انها اختارته بعناية ومحبة فائقتين. وفيما كانت هيلين تحاول

وضع ذلك العقد المصنوع محلياً حول عنقها، دخل جستن من الغرفة الثانية في ذلك الجناح وقال لها:

«لا اعتقد انك ستلبسين هذا العقد الليلة، أليس كذلك؟».

«طبعاً سألبسه، فهو هدية من جولييت».

«اعرف ذلك. ولكن من المؤسف انها اصرّت على اختياره بنفسها. وهو بالمناسبة لا يتمشى كثيراً مع الفستان الذي ترتدين».

«هل اعتبر هذه الملاحظة منك اعتراضاً على لبس العقد؟».

«كلا، ولكن...».

لم يكن من عادة جستن ابداً قول جملة ناقصة او ان يتلعثم او يتردد. واستدارت هيلين نحوه وقالت له بتصميم وثبات:

«وعدت جولييت بأنني سألبس العقد هذا اليوم وما من شيء يجعلني انكث بالوعد».

«هكذا اذن. ان جولييت محظوظة للغاية».

بعد العشاء اقترح جستن ان يقوما بنزهة في السيارة تأخذهما الى الطريق الساحلي الذي يمتد عشرات الكيلومترات بمحاذاة شواطىء ذهبية رائعة وحدائق غنّاء ومناظر طبيعية خلاّبة. وكان النسيم المنعش يدغدغ وجه هيلين في تلك السيارة الفخمة المكشوفة. وشعرت في تلك اللحظات الهادئة انها مستعدة لمجاراة التيار الذي يختاره لها القدر.

ولدى عودتهما الى الفندق سألها جستن:

«كيف تريدين تمضية هذه الأيام الأربعة؟ هل تودّين تخصيص الجزء الاكبر لمشاهدة المعالم السياحية او انك تفضلين الراحة والتسوّق؟».

«اود التعرّف على اكبر قدر من المحلات التجارية».

قالتها هيلين بهدوء محاولة كبح رغبتها في الاعتراف له بأنها غير مهتمة بأي شيء او اي مكان ان لم يكن هو معها. ثم اضافت قائلة:

«ان اردت الحقيقة، فانني لا ادري ماذا سأفعل. سأذهب الى اي مكان تختاره انت، اذ اني غريبة هنا».

«وأنا أيضاً، باستثناء اسبوعين امضيتهما في معمل لتكرير السكر يقع قرب الساحل».

وفي مدخل الجناح الذي يشغلانه، وقف جستن برهة وجيزة شعرت

خلالها هيلين بأنه على غير عادته متوتر الاعصاب قليلا. وفجأة قال لها بتمهّل وجدّية:

«قبل ان اتمنى لك ليلة سعيدة، هنالك هدية رمزية لك كنت اود تقديمها في وقت سابق».

وانسحب جستن الى غرفة النوم الصغرى، فيما دخلت هيلين الى غرفتها ووضعت حقيبتها وسترتها الحريرية البيضاء على سريرها. ثم سمعته يدق بابها المفتوح، فدعته الى الدخول فيما كانت تضع فساتينها وبقية ثيابها الاضافية في الخزانة. وما ان استدارت نحوه حتى سمعته يقول لها وهو يضع علبة صغيرة الحجم على طاولتها:

«هذا لك، وأرجو ان تلبسيه غداً».

حدّقت به برهة ثم تنبّهت فجأة الى ان تلك العلبة الصغيرة كانت سبب تغيبه المفاجىء بعد وصولهما مباشرة الى الفندق. وتقدمت هيلين نحو الطاولة بهوادة، واخذت العلبة الصغيرة وراحت تقلّبها بين يديها وهي شبه متأكدة من انها تحتوي نوعاً من المجوهرات الثمينة. ولما نزعت الورقة الفضية التي كانت تلف العلبة وقرأت اسم احد اشهر محلات المجوهرات في دوربن، شهقت متعجبة. وزادت دهشتها وسعادتها، عندما فتحت العلبة واخرجت عقداً من الماس ومعه قرطان مماثلان. وحاولت هيلين اخفاء انفعالها وتأثرها وسألته بتلعثم:

«هل... هذه الهدية... لي... أنا؟».

ابتسم جستن واجابها:

«ولمن اذن؟ أليس امراً طبيعياً ان يهدي الرجل زوجته اشياء جميلة تزيّن بها عنقها واذنيها؟».

«نعم... ولكن... ولكن لم اتوقع...».

ولم تتمكن هيلين من اكمال جملتها لأنها لم تجد الكلمات المناسبة ولأن جستن قاطعها قائلا:

«لم تتوقعي مني اهتماماً شخصياً بك!».

«لا... لا... ما اعنيه هو انني...».

وعضّت على شفتها عندما لاحظت فجأة انها قطعاً بدت ناكرة للجميل الى حد مزعج. وعندها اقتربت منه وهي لا تزال تحمل العقد الثمين في

يديها المرتجفتين، وقالت:

«شكراً جزيلا لك. انها اجمل مجموعة من الاحجار الكريمة حصلت عليها في حياتي. لا ادري ماذا... اقول».

«اذن فلا تقولي شيئا».

قالها بمرح وهو يأخذ العقد من يديها ويضعه حول عنقها. ثم امسك بيديها المرتعشتين وتأمل وجهها الحالم، وقال لها بحنان:

«وهل كنت تتخيلين انني انوي حرمان زواجنا من الدفء والعاطفة؟!».

«لا... أنا...».

وصمتت هيلين لحظة شعرت خلالها بأن دقات قلبها تكاد تسمع من الخارج. هل يعني ما يقول؟ هل انه سيحبها فعلا، ام انه سيكتفي بهذه التصرفات اللطيفة والرعاية الحساسة؟

وضعت يدها على كتفه واحنت رأسها قليلا، ثم اغمضت عينيها وقالت له هامسة:

«لست متأكدة. ربما تخيلت ذلك. ولكن كان يجب ان اعرف».

ابعدها جستن برفق متسائلا:

«ان تعرفي ماذا يا هيلين؟ ألأنني ذكرت الدفء والعاطفة، فهل ستظنين انني انوي مطالبتك بأن يكون زواجنا كزواج المحبين؟ وهل تعتقدين انه يتحتم عليك تقديم شيء ما مقابل هديتي لك؟».

وتسارعت الكلمات وخيّم جو من التوتر فيما تابع جستن حديثه بشيء من العصبية المكبوتة:

«أنا اعرف انك شابة في مقتبل العمر وان الشباب في هذا العصر الحديث يفخرون بأنهم قادرون على مواجهة الحياة ومصاعبها. ولكن كنت اظن انك فهمت الموضوع بطريقة افضل».

توقف جستن لحظة ثم وجّه اليها نظرة فاحصة وقلقة، وقال:

«لو عدنا بالذاكرة الى الوقت الذي اثرت فيه موضوع الزواج، لتبين بكل وضوح انه لم تكن هناك اية التباسات او اوهام خاطئة. ولكن مهما كانت نظرتك انت الى الموضوع، فان مبادئي واخلاقي لن تسمح لي باستخدام الترتيبات التي اتفقنا عليها كعذر لاقامة علاقة زوجية تخلو من

مشاعر المحبة والحنان».
شعرت هيلين بأن كلمات جستن نزلت عليها كالصاعقة. وابتعد
عنه زائغة البصر، متجهمة الوجه، حائرة وشبه ضائعة. ثم سمعته يقو
لها بهدوء وروية:
«صدّقيني، لو كنت اود قيام علاقة كهذه لأتبعت اسلوباً مختلفاً تم
الاختلاف، الا اذا... الا اذا كنت انت تريدينها هكذا».
لم يعد هناك اي شك في تفسير ما يعنيه، فقد اتضحت المعالم والنوايا
وتصارعت في افكارها المشاعر المتناقضة فيما كانت تحاول ايجاد ال
الصحيح على جملته الاخيرة. ثم تغلبت عزة نفسها على اوهامها بأ
ستحظى بحبه، وسألته بصوت خافت:
«وهل بدرت مني اي اشارة الى انني اريد علاقة زوجية مجردة من الح
والعاطفة؟».
وعندما اجابها جستن نفياً، عادت الى توجيه الاسئلة:
«ان الأمر يختلف بالنسبة للرجال، أليس كذلك؟».
«نعم».
تبع ذلك صمت شعرت بأنه يؤكد حقيقة لم تود الاعتراف بها. و
شعرت انه لم يعد لديها شيء تضيفه او تسأل عنه، توجهت نحو سرير
للجلوس عليه. ولكنه اوقفها برفق قائلا لها:
«أليس من الأفضل والأسهل ان تلبسي العقد، وتنسي احتياجا
المحتملة، وجميع هذه الالتزامات والواجبات التي خطرت ببالك فجأ
ولماذا لا ننهي الموضوع عند هذا الحد، قبل ان يسيء اي منّا الى الآخر،
يضطر احدنا للقبول بشيء لا يريده؟».
ثم امسك بالعقد المتدلي على صدرها وقال لها مبتسماً:
«انه جميل جداً عليك. تصبحين على خير يا عزيزتي».
وما ان انهى جستن جملته حتى قبّلها على جبينها وانسحب بسرعة
غرفته قبل ان يتسنى لها التفوه بشيء. وشعرت هيلين بأن السكينة عاد
اليها، ولم تعد تسمع سوى صدى اقفال الباب.

٨- ذلك الرأس الجميل

فيما اقتربت الأيام الأربعة من نهايتها، بدأت هيلين تتساءل عما اذا كانت في حلم او في حقيقة. ولكن العقد الرائع لا يمكن ان يكون خيالا، فهو يزين عنقها وتتحسّسه اصابعها، كلما تذكرت الحادثة الصغيرة في الليلة الأولى.

وكما وعدها جستن قبل مغادرتهما سلمندر، اصر في اليوم الأخير على شراء خاتم خطوبة قائلا:

«هراء، لن اقبل اعتراضك. فهل من المعقول ان تنهي زيارتك الاولى لمدينة الاحجار الكريمة بدون الحصول على خاتم من الماس؟ حتى لو اقلقتك او ازعجتك فكرة الخطوبة، فلماذا لا تتخيلينه خاتماً عادياً للسهرات؟».

احزنها كرمه ولطفه المتزايدان وتعاظمت رغبتها في مشاركته العطاء. ولكن حياة جستن تبدو مكتملة بدونها. فهو هادىء، وسعيد... ومكتف ذاتياً. فهل هنالك سبيل آخر لكي تمنح الرجل الذي تزوجته شيئاً من ذاتها، الا عبر العناية بابنته وتأمين امومة جديدة لها؟

«هذا هو المحل الأخير في قائمتنا. فهل انت متأكدة من اننا لن ننسى اي شيء؟ تذكري انه ستمضي فترة قبل ان تسنح لنا الفرصة مرة ثانية للتسوق في المدن الكبيرة».

هزت هيلين رأسها مؤكدة، فقال مازحاً:

«سوف تتذكرين عدة اشياء بمجرّد اقلاع الطائرة».

ولما عادا الى جناحهما في الفندق، وشاهد جستن العدد الكبير من الحقائب والصناديق والأكياس، ضحك قائلاً:

«يتحدثون عن الوزن الاضافي! يجب ان نحجز طائرة بكاملها عوضاً

عن مقعدين فقط».

وبينما كان يتأمل ضخامة الحاجيات، لفت نظره كتاب كبير الحجم، فأخذه من كيسه بعد ان استأذنها بذلك وبدأ يتصفحه. وبعد لحظات قضاها جستن في تأمل بعض الصور الملونة لعدد من فرق الباليه العالمية، رفع بصره نحوها وسألها:

«ترى هل سنجد صورتك ، هذا الكتاب؟».

«بالطبع لا. فهو مخصص معظمه للفرق الذائعة الصيت امثال البولشوي والفرقة الملكية»

«وما دفعك لشراء كتاب كهذا؟ اهي الذكريات الحلوة المرّة؟».

«الى حد ما، نعم. وقع نظري عليه عندما كنت تكدس لنفسك تلك المجموعة الكبيرة من الروايات البوليسية. وقلت لنفسي ان جولييت ستفرح به اذ انها مغرمة بالباليه».

«اعلم ذلك».

اقفل جستن الكتاب واعاده الى مكانه ثم سألها:

«أتلاحظين انه موضوع لن تتمكني من نسيانه؟».

«هذا صحيح... اعلم الآن انني كنت على خطأ تام عندما اعتقدت ان بامكاني اقتطاعه من حياتي وطي صفحته الى الأبد. لقد كانت الباليه اروع شيء في حياتي، ويبدو ان محاولة نسيانها اصعب بكثير واشد ايلاماً من تذكرها بين الفينة والاخرى».

اقترب منها جستن وقال لها، واضعاً يديه برقة على كتفيها:

«لا تحاولي ارغام نفسك على النسيان. الأفضل ان تتركي الأمور تأخذ مجراها، فلا شيء كالزمن يساعد على تخفيف الألم. ويوماً ما سآخذك لحضور بحيرة البجع لفرقة عالمية. ويكون ذلك عندما تتحررين من الأسى والندم، وليس من الذكريات. الحياة للحاضر يا هيلين، لا للماضي ولا للمستقبل».

كانت كلماته لطيفة ولهجته رقيقة ووادعة، فشعرت بتأثر بالغ وقالت له شاكرة:

«انك صبور جداً معي».

تطلع جستن في ساعته، وقال لها مازحاً:

«لا لست صبوراً على الاطلاق، اسرعي بحق السماء، فلم يعد يفصلنا عن موعد اقلاع الطائرة سوى ساعة واحدة فقط».

بعد الاقلاع بقليل، اخذت هيلين الكتاب وراحت تتفحصه، متذكرة الكلام الواقعي والمنطقي الذي سمعته من جستن. ودهشت جداً عندما لاحظت ان ردّ الفعل الذي كانت تخاف حدوثه لم يحدث. صحيح ان بعض الصور اثارت في نفسها حنيناً طبيعياً للباليه. ولكن لم تكن لديها، كما توقعت، الرغبة في اقفال الكتاب بعصبية ورميه بعيداً عن بصرها. وتبين لها ان بامكانها دراسة النواحي الفنية بصورة مجردة وبعيدة عن الانفعال، تماماً كما كان يحدث في الماضي قبل...

تنهدت هيلين وتابعت تصفح الكتاب بهدوء، ربما كان جستن محقاً في تحليله... ربما سيأتي يوم يزول فيه الألم. اغلقت الكتاب واعادته الى مكانه. وتطلّع جستن نحوها محاولا معرفة ما يدور في ذلك الرأس الجميل. هل تخلّت يا ترى عن ذلك التعلّق المؤلم والمحزن بالماضي؟ وهل من الممكن انها وجدت شيئاً آخر تحبه... وتتعلق به؟

في مطار سلمندر كانت جولييت تقفز فرحاً، وتوزّع قبلاتها وضحكاتها بالتساوي بين جستن وهيلين والسيدة رالي، التي رعتها لعدة ايام. ولم تتوقف عن القفز والثرثرة حتى عندما كانت جالسة بين والدها وهيلين في المقعد الامامي من السيارة، مما دفع جستن الى التهديد برميها الى المقعد الخلفي قرب طوم والحقائب.

أمام فيللا ميموزا، تملكت هيلين احاسيس حلوة وغريبة... فخلال لحظات ستدخل تلك الفيللا مرة اخرى، لا لتزور بل لتبقى. هذا هو... بيتها.

وخرجت ألي لملاقاتهم وهي تكاد ترقص فرحاً. حيّت سيدة البيت الجديدة بتهذيب وحياء، واحتضنت جولييت بمحبة وحنان. وفي تلك الاثناء كان جستن وطوم ينقلان الحقائب والأكياس التي ملأت صندوق السيارة والجزء الاكبر من المقعد الخلفي. وعندما حاولت هيلين دخول المنزل، اوقفتها صرخة قوية من جولييت:

«لا... لا تدخلي الآن يا هيلين. ابي... يجب ان تحملها وتدخل بها وهي بين ذراعيك. هكذا يفعلون دائماً. ولكن انتبه، ارجوك. فعندما حمل

كلايف ابنة العم آن لدى عودتها من شهر العسل تعثر وكاد ان يرميها».
ضحك جستن وقال لجولييت هو يرفع هيلين بخفة ملحوظة:
«لا تخافي يا حبيبتي، فهيلين في ايدٍ امينة. وانا لست ممن يوقعون زوجاتهم».
وفي الداخل، انزل هيلين برفق قائلا:
«ها قد اوصلتك سالمة. اهلا بك في بيتك».
وعندما سمع جولييت تطالبه بمعاملة مماثلة، ابتسم وقال لها:
«لا، فانت لست العروس. ولكن يمكنك المساعدة في جلب الحاجيات الصغيرة من السيارة».
شعرت هيلين بان عليها التحرك بسرعة. فهذا هو بيتها الآن... وهي زوجة، وام، وسيدة المنزل. طلبت من طوم ان يعدّ كأساً لصاحب الدار، واعطت تعليمات لألي بصدد العشاء. ثم طلبت من جولييت ان تساعدها في افراغ الحقائب، خاصة انها لاحظت تشوقها الواضح لاستلام هداياها.
مرّت بضعة ايام امضتها العائلة الجديدة بشكل طبيعي معتاد. جستن يذهب الى عمله... جولييت تذهب الى مدرستها... وهيلين تعمل على الاهتمام بها وبالمنزل، يساعدها طوم وألي. وفي احدى الامسيات، قال لها جستن:
«انك ترهقين نفسك يا عزيزتي. فآلة الخياطة لا تكاد تفارقك منذ اسبوع».
«لا بأس. اريد الانتهاء من الستائر لكي ابدأ العمل في ثياب جولييت. فجميع ثيابها اصبحت ضيقة عليها».
تدخلت الفتاة الصغيرة لتشرح لوالدها كيف ان معظم فساتينها ستكون من نوع القماش نفسه الذي ستشتريه هيلين لنفسها. واراد جستن تغيير موضوع الستائر والثياب، فسأل ابنته عن دروسها. اجابته متضايقة:
«مزعجة، مزعجة. فهم يعلمون هنا بطريقة مختلفة تماماً. ولكن التاريخ لا بأس به، ودرس الفن رائع».
تطلع بهيلين بقلق قائلاً:
«كنت اخشى ذلك. فالطريقة التعليمية القديمة المتبعة هنا ستبدو صعبة للغاية بالنسبة لمن تعلم في انكلترا».

ثم حوّل نظره الى ابنته وقال:
«ربما كان عليك البقاء مع جدّيك».
صرخت الفتاة الصغيرة، وقد بدا الرعب على وجهها:
«لا. لا يا ابي! لا يمكنك ارسالي مرة اخرى. سأعمل بجهد اكبر واذرس اكثر. اعدك بشرفي. ثم... ثم ان هيلين معنا الآن».
لم تتغير تعابير وجهه، عندما ردّد كلماتها الأخيرة:
«نعم، ان هيلين معنا الآن».
وتابعت الفتاة حديثها بلهجة عاطفية بريئة:
«ولا تنسَ يا ابي ان هذا هو بيتنا. فانت تعمل هنا ونحن نعيش... معك».
«صحيح جداً ما تقولين».
ثم وضع ذراعه حولها وضمّها اليه متابعاً بحنان زائد:
«ولكن اذا اضطررنا للبقاء هنا عندما تبلغين الحادية عشرة، فعليك الذهاب الى انكلترا لمتابعة دروسك».
تنهدت جولييت مرتاحة، وشعرت بأن ذلك العبء الثقيل الذي حط على صدرها قد زال الى الأبد. فثلاث سنوات فترة طويلة لم يرد لفكرها ان يتخطاها. وبعد ان قالت لأبيها انها موافقة على ذلك ومستعدة له، عادت الى غرفتها لتواصل مطالعة فروضها.
وفي احدى الامسيات، بعد اسبوعين من حديث المدرسة، عاد القلق يساور جستن حول دراسة جولييت. وما ان بدأ يعرب لصديقه روجر درو عن مخاوفه في هذا المجال، حتى تدخلت هيلين قائلة بلهجة الواثق من نفسه:
«انا متأكدة من انه لا داعيَ للقلق الى هذا الحد. فجولييت ذكية للغاية وهي تدرس الآن مواضيع لن تعطى لها في بلادنا. وعندما يحين موعد عودتها، فانها ستكون متقدمة على رفيقاتها في اكثر من مجال. وحتى لو كانت متأخرة في موضوع او آخر، فلن تجد صعوبة ابداً في اللحاق بهن، وربما للتفوق عليهن».
«اعلم ذلك، ولكن الاسلوب هنا مختلف كلّياً. انها طفلة صغيرة وقد تتأثر نفسياً الى حد كبير نتيجة للسرعة المطلوبة في تأقلمها مع الاساليب

التعليمية المختلفة».

سكب جستن لنفسه كأساً أخرى وجلس في كرسيه يفكّر ويحلّل. فما كان من هيلين الا ان سارت نحوه ببطء ووقفت قربه ثم سألته:

«وهل تريدها ان تكون فجأة جامعية خارقة الذكاء؟».

«طبعاً لا، وانت تعرفين جوابي مسبقاً. كل ما اريده لها ان تحصل على المعلومات الاساسية الضرورية لكي لا تواجه مصاعب كبيرة عندما تدخل الصفوف العليا في انكلترا».

لا شعورياً وضعت هيلين يدها على كتفه وقالت:

«هل تعلم يا جستن انها بدأت الان تصل الى النتيجة المطلوبة متّبعة المثل القائل ان جميع الطرق تؤدي الى روما. فأمس رسمت لنفسها خطاً واضحاً بين الاسلوبين التعليميين يؤدي الى الهدف ذاته».

ثم ابتسمت للوجه الذي علته دهشة فرح واعتزاز قائلة:

«نعم، انها الحقيقة بعينها. فقد توصلت الى نتيجة ذكية جداً. اسألها بنفسك لتعلم انني لا ابالغ».

«انها تبحث مشاكلها معك بكل حرية وانفتاح. أليس كذلك؟»

هزت هيلين برأسها علامة الايجاب، ثم تابعت حديثها:

«اعتقد انها اصبحت الان واثقة من نفسها ومن نجاحها الى حد كبير. وقد خطرت ببالها فكرة جديدة هي ان اعلمها رقص الباليه».

«وهل ستجيبين طلبها؟»

«طبعاً».

مرت فترة من الصمت، رفع جستن على اثرها يده لتحتضن يد هيلين الموجودة على كتفه، وقال بهدوء:

«انك رائعة مع جولييت».

لم تعلّق هيلين بشيء على تلك الملاحظة خوفاً من سماع المزيد من كلمات الشكر والتقدير. وقد سرّها كثيراً انه اكتفى بشد يدها بحرارة، وانتقل الى موضوع آخر قائلا:

«بالمناسبة، اغراضك ستصل الليلة من انكلترا. سأتصل غداً باصحاب الباخرة بعدما احضر جولييت من المدرسة».

دهشت هيلين لسماع ذلك. فهل حقاً انقضت فترة سبعة اسابيع على

ارسال برقية الى صديقتها ليزا لارسال بقية حاجياتها؟ وهل مضى على وجودها في سلمندر اكثر من ثلاثة اشهر؟!

في اليوم التالي، احضر جستن الصندوقين الكبيرين الى المنزل. وكان احدهما بالطبع يحتوي كل ما كانت تلبسه او تستخدمه في الباليه. وفيما شعرت هي بشيء من الحزن والألم، كانت جولييت تقفز فرحاً وتسألها:

«هل يمكنني ارتداء هذا الفستان؟ اني احلم منذ زمن بعيد بدور ملكة البجع».

«بالطبع يا حبيبتي. ولكنه كبير جداً بالنسبة لك».

«لا بأس، لا بأس ابداً».

تطلع جستن الى زوجته قلقاً وسألها بصوت منخفض:

«هل تعرفين ماذا تفعلين؟ هل ستتمكنين من مشاهدتها تتخايل وتتمايل امامك بهذا الفستان، تذكّرك...».

«انها محطة اخرى يجب ان اتوقف عندها في طريقي الى النسيان. لا يمكن ان ارفض طلبها، فارتداء ثياب الكبيرات هو سعادة بالغة للفتيات الصغيرات. وانا... لم اتمكن... من رمي هذه الثياب... بعد... بعد الذي...».

توقفت فجأة عن متابعة كلامها المتقطع والاسترسال في الذكريات الحزينة وقالت بنبرة ثابتة:

«هذه الثياب اما تكون امام عينيّ ولا تزعجني، او لا تكون على الاطلاق. فلا داعي بتاتاً لاخفائها داخل البيت وحرمان جولييت منها ومن اللهو بها».

اثناء مساعدته لها في افراغ الصندوقين، وقع نظره على ظرف يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية لهيلين اثناء التدريب على الرقص، او خلال الحفلات القليلة التي اشتركت بها. وفجأة وقعت صورة صغيرة فالتقطها جستن واخذ يتأمل ذلك الشاب الضاحك. وعندما قلب الصورة اثناء اعادتها الى مكانها، لاحظ ان كلمة واحدة فقط تزينها... توقيع كفين باسمه الاول.

«ما رأيكما بنزهة الى خليج سلمندر؟».

«الان يا ابي؟ قبل ان اجرب فستان هيلين؟».

«ولم لا؟ انه يوم جميل، وهيلين لم تشاهد بعد تلك الشلالات الرائعة».
تطلعت اليه هيلين حائرة. هل اقترح النزهة لمجرد اللهو او لأنه يريد ابعادها قليلا عن ذكرياتها والترويح عنها؟ مهما تكن فكرته، فانه رجل فذ... ورجل تحبه. وفيما كانت لا تزال ممسكة باحد فساتينها المفضلة، تقدم نحوها جستن واخذ منها الفستان ثم رماه في الصندوق قائلا بشيء من الحدة:

«اتركي هذا الفستان لجولييت، وهيا بنا. بدّلي ثيابك واحضري لنفسك ثياب السباحة، وسأطلب انا من ألي ان تعد بعض المأكولات والمرطبات».
آه من الحب ومن عذابه. هل سيحبها مستقبلا؟ ومتى؟ وكيف؟ اقصى امانيها ان يحبها كما تحبه هي، قلباً وروحاً وجسداً. ولكن الحب... ليس من ضمن الترتيبات المتفق عليها.
انطلقت العائلة الى الخليج، الذي يبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً عن فيللا ميموزا، بعد ان اعدّت ألي كل ما يلزم لتمضية بضع ساعات في تلك المنطقة الرائعة. وبمجرد وصولهم، كانت جولييت بالطبع السبّاقة في القفز الى الماء.
سبح الثلاثة لفترة طويلة ثم تمددوا على الرمال الناعمة الدافئة، واخذ كل منهم كتاباً للتسلي به. ولكن جولييت ملّت القراءة، فأستأذنت والدها لأخذ آلة التصوير والتقاط بعض الصور للشلالات.
«موافق، شرط الا تحرقي الفيلم بكامله كما حدث في المرة السابقة. ولكن مهلاً. لم لا نذهب جميعاً الى الشلالات؟».
رقصت جولييت فرحاً ثم انقضت على آلة التصوير وركضت باتجاه الشلالات وهي تغني وتدعوهما للّحاق بها. ابتسم جستن ومد يده لمساعدة هيلين على النهوض قائلا:
«انه مكانها المفضل في هذه الجزيرة. وهي تحلم منذ فترة طويلة بالتقاط صور ملونة لذلك المشهد الفريد الذي لا يتكوّن الا مرة واحدة في اليوم... عندما تضرب اشعة الشمس الشلالات من زاوية معينة. وهذا هو السبب في تسميتها بشلالات قوس القزح».
امضى الثلاثة وقتاً ممتعاً في خليج سلمندر وقرب الشلالات وعادوا الى المنزل بعد غياب الشمس بقليل. استقبلتهم ألي عند الباب الخارجي

واحتضنت جولييت التي ألقت بنفسها بين ذراعيها . وفي غرفة الطعام ، كان عشاء الفتاة السعيدة جاهزاً فالتهمته بسرور لأن الجوع بلغ بها حداً كبيراً . ثم اعدّت لها هيلين حمّاماً ساخناً واخبرتها قصة طريفة فيما كانت ترتدي ثياب النوم وتستعد لدخول عالم الاحلام السعيدة. وبعد ان طبع والدها على خدّيها القبلات المسائية المعتادة وتمنى لها نوماً هنيئاً، خرج من غرفتها قائلا لهيلين:

«هل نسيت ابلاغك بانني حجزت طاولة في سيلفر سلمندر؟».

«لهذه الليلة؟».

«نعم. الا اذا كنت متعبة بعد السباحة والنزهة المرهقتين».

ثم تقدم منها قليلا وسألها بجدية:

«هل تريدين ان اتصل وألغي الحجز؟».

صمتت برهة وجيزة حائرة، ثم قالت له، بعد ان سيطرت على مشاعر الدهشة التي تملكتها في بادىء الأمر:

«لا، لا بالطبع لا. ما لم... تكن انت متعباً».

ابتسم جستن وقال لها مازحاً:

«وهل يبدو عليّ التعب؟ اتظنين انني هرمت؟».

خجلت هيلين من سؤالها واجابته متلعثمة:

«لم اقصد ذلك. كنت اعني فقط... انك... ربما لم تكن راغباً... في الخروج مرة اخرى».

«ولماذا اذكر السهرة لو لم اكن مستعداً لها، وراغباً فيها؟».

ثم تنهّد قائلاً لها بتأفف رقيق:

«بربك يا هيلين، لماذا تأخذين كل ملاحظة او جملة اقولها بمثل هذه الجدّية المتناهية؟».

«انا... انا لم... سآخذ حماماً سريعاً وألبس ثياب السهرة».

انتظر جستن حتى بلغت باب الحمام، وقال لها بلهجة مرحة:

«ان لم تخرجي من هذا الحمّام خلال عشر دقائق، فسأقتحمه واخرجك منه عنوة... مثلما تكونين».

٩- رمال تتنهد

فيما كانا يتوجهان نحو ذلك المطعم الفاخر، اخذت هيلين تتساءل عما اذا كانت تعامل جستن بكثير من الجدّية! صحيح انه يكبرها بخمس عشرة سنة، وانه بنضجه وخبرته الطويلة في الحياة يفرض عليها احتراماً طوعياً. ولكن الرجل ليس قاسياً او بارداً، بل رقيقاً وحنوناً... ويحب المرح. فلماذا لا تتجاوب معه؟ عوضاً عن الانزواء بعيداً عنه والانكفاء على ذاتها... وهما امران لا يحبهما ابداً!

هل ازعجته بتصرفاتها؟ وهل يعاني ما تعانيه هي من التشكك وعدم الثقة بالنفس؟ هل يشعر مثلها بأنهما غريبان يبحثان عن بعضهما عبثاً ويحاولان، في الوقت ذاته، الابقاء على تهذيبهما الاجتماعي ومشاعرهما المكبوتة؟ وهل تسبّب له الضجر والملل؟

فجأة توصلت هيلين الى قرار صعب، وقررت ان تنسى مشاعرها وتتصرف وفقاً لأسلوب جديد. فاذا كان جستن متضايقاً من افراطها بالرزانة والوقار، فعليها اذن ان...

توقفت السيارة امام مدخل الفندق، وخرج جستن ليفتح لها الباب، قائلاً بمرح:

«والله انك ثرثارة كبيرة. ألم يجف لعابك من كثرة الكلام؟».

ابتسمت هيلين واعتذرت عن صمتها طوال الوقت. فما كان منه الا ان قال:

«كما يقولون في انكلترا على سبيل التندر واخراج انسان عن صمته، اني مستعد لدفع قرش لمعرفة ما كنت تفكرين به».

ضحكت هيلين وردّت عليه قائلة:

«كل الأفكار التي وردت في رأسي منذ خروجنا من البيت حتى الآن لا تساوي قرشاً واحداً بسبب سطحيتها وتفاهتها».
«اصبحنا متساويين».
اصبحا في تلك اللحظة داخل المطعم. وعندها سألها جستن:
«هل تريدين الجلوس قرب السمك؟».
«السمك!».
قالتها بتعجب قبل ان ترى الطاولة التي اشار اليها الخادم والواقعة قرب حوض اصطناعي للأسماك والنباتات البحرية. تدخل الخادم محاولا انقاذ الموقف:
«ربما تفضّل سيدتي طاولة تحت القناطر الداخلية!».
«لا، اعتقد ان...».
وتحولت نظراتها الى الطاولة المقترحة وشعرت ان الجو هناك اكثر شاعرية وافسح مجالا للانسجام والتناغم، فقالت بلهجة لا تقبل الجدل:
«نعم، نعم. اظن انني افضّل تلك الطاولة».
وفي تلك الزاوية الهادئة التي تظللها اغصان طبيعية وينيرها ضوء خافت وحالم، قال لها جستن بعد ان اعطى تعليماته الى الخادم بما يريدان:
«كنت اظن دائماً ان مراقبة الاسماك الملونة الصغيرة في احواض جميلة كهذه تريح الأعصاب الى حد كبير».
«انهم يضعون احواضاً كهذه في عيادات جرّاحي الاسنان. ومثل هذه الراحة لا اريدها لنفسي».
ارتفع حاجباه فجأة وسألها:
«وهل تفضلين العيش متوترة الأعصاب وكأنك تسيرين على حبل مشدود؟».
«لا، طبعاً لا. على الأقل، ليس كل الوقت».
«ولكنك متوترة الأعصاب منذ خروجنا من المنزل. ما هو السبب؟».
«وهل يجب ان يكون هناك دائماً سبب وجيه وتعليل منطقي لكل حالة عصبية بسيطة؟».
لم تسمع جملته التالية لأنها لم ترد الخوض في تحليل مشاعرها وحالتها النفسية. وحوّلت الحديث بسرعة الى موضوع آخر اكثر أماناً وأقل فذلكة،

الا وهو جولييت ورحلتهم الى شلالات قوس القزح. وعندما بدأ جستن بتناول قطعة الحلوى التي تأتي بعد العشاء، تنبّهت هيلين الى ضآلة الوقت الذي تمضيه مع جستن بمفردهما. فباستثناء الأيام الأربعة التي امضياها في دوربين، لم تسنح لها الفرصة للانفراد به الا بعد ان تذهب جولييت الى النوم. وحتى تلك الامسيات لم تكن كلها لهما. فحيناً يكون مضطراً لدراسة بعض الأوراق والمستندات، وحيناً آخر يزورهما روجر درو ليشرب معهما فنجاناً من القهوة ويبحث مع جستن اموراً تتعلق بالمعمل والشركة.

الى متى يمكنهما، او بالأحرى يمكنها هي بالذات، الابقاء على تلك العلاقة الروحية؟ او ان عليها انتظار ذلك التحوّل التدريجي الذي لا بد من حدوثه بين شخصين يعيشان تحت سقف واحد؟ وعندما انتهت من قطعة الحلوى الكبيرة، رفعت رأسها لتجده يراقبها ويتأملها قائلا:

«الأفكار مرة اخرى؟ ام انك تستمتعين بهذه المجموعة الضخمة من الوحدات الحرارية؟».

«قليل من هنا وقليل من هناك. لم أتجرأ على تناول كميات كبيرة من المأكولات والحلوى عندما كنت مع فرقة الباليه».

«تخيلت انك بحاجة لكميات كبيرة من الحلويات لأنها تعطي المزيد من القوة والقدرة على تحمّل الارهاق».

«كانت لنا شهية قوية جداً، ولكن مأكولاتنا اقتصرت على اللحم المشوي وسلطة الخضار واشياء مماثلة. فهذه الأنواع تزيد من قوة الانسان ولكنها لا تسبب له السمنة».

ضحك جستن كثيراً وردّ:

«لست قادراً على تخيّل اي نوع من الأكل يمكنه ان يجعلك تسمنين. فخلال عامين او ثلاثة ستصبح جولييت اكثر وزناً منك، وربما اطول».

وتذكّرت هيلين ان جولييت تصل فعلا الى مئة واثنين وثلاثين سنتيمتراً، في حين انها هي لا تتجاوز المئة والسبعين. وبما ان والدها رجل طويل القامة، فليس من المستغرب ان تفوقها طولا خلال سنوات قليلة. ثم عاد جستن الى الحديث، ولكن هذه المرة بلهجة رقيقة ولطيفة:

«لاحظت تحولا كبيراً في طولها خلال عام واحد. فعندما اتت الى سلمندر في العام الماضي كانت طفلة صغيرة ممتلئة الجسم. ولكن عندما

شاهدتها تنزل سلّم الطائرة قبل ثلاثة اشهر، كدت لا اعرفها نظراً للازدياد المذهل في طولها، والانخفاض الملحوظ في وزنها».

لم تعلّق هيلين فوراً على حديث جستن، خاصة حين تذكرت ما قالته لها جولييت على الطائرة من انها كانت تتناول كميات قليلة جدا من الطعام بسبب رفض جدّيها السماح لها بالانضمام الى والدها. وعندما ارادت ان تقول ان بعض الأطفال يزداد طولهم فجأة في اعمار معينة، انتبهت الى ان روجر درو موجود قرب مدخل المطعم يتحدث الى شخص ما. ومع انها تستلطفه وتحترمه كثيراً، فقد تمنت الا يراهما لأنها لم ترد ان يعكّر صفوهما وخلوتهما اي شيء على الاطلاق.

تحرك روجر قليلا، فشاهدت هيلين فتاة ممشوقة القوام تتقدم بضع خطوات ثم تقف قربهما مشدوهة وتقول بلهفة:

«جستن!».

استدار جستن بسرعة الى يمينه، وحين شاهد صاحبة الصوت هبّ واقفاً وقال لها بدهشة مماثلة:

«لوسي! لم اعلم انك عدت».

شعرت هيلين بصدمة حادة عندما سمعته يقول هذه الكلمات بلهفة واضحة، واكثر من ذلك عندما شاهدت تلك الفتاة تمدّ يديها الى يدي جستن قائلة وقد لمعت عيناها بابتسامة برّاقة:

«ما اروع ان التقي بك في الليلة الاولى لعودتي! اوه يا جستن، هل حقاً مضت سنة كاملة؟ لا اصدق ذلك. اخبرني الآن، كيف حالك، وكيف جولييت؟».

«بخير، شكراً».

«انني متشوقة جداً لمشاهدتها، خاصة بعد انتقالها للعيش معك. وأنت يا جستن، ما هي اخبارك؟ اوه، جستن، انك... انك متزوج!».

تطلّع بزوجته قائلا:

«هيلين، اعرّفك بالآنسة سندانا. لوسي، اعرّفك بزوجتي».

وقفت هيلين بتمهّل ومدّت يدها لمصافحة لوسي. ومما زاد في حدّة صدمتها ان الفتاة رائعة الجمال وذات اناقة ملحوظة. عيناها خضراوان واسعتان وبشرتها ناعمة رقيقة، وفمها قرمزي يضج بالنضارة والجاذبية،

لدرجة ان عيون الرجال تظل معلقة به فترة طويلة، حتى بعد ان تتوقف صاحبته عن التحدث او الابتسام.

شعرت هيلين وهي تقف وجهاً لوجه امام لوسي بأنها صغيرة... وشاحبة... وربما تافهة، اذا ما قارنت نفسها بتلك الفتاة الصارخة الجمال. لوسي نار متّقدة ومتأججة، وها نظرات جستن وروجر ومعظم الرجال الآخرين في المطعم تحوم حولها كالفراشات... يحترق بعضها ويموت بدون ان يتراجع.

ابتسمت لوسي وقالت لهيلين:

«أنا سعيدة بهذا اللقاء. لقد اخبرتني والدتي الكثير عنك. لا شك انه لأمر فظيع ان تضطري للتخلي عن تلك المهنة الرومنطيقية الرائعة. ألا تحنين اليها كثيراً؟».

«احيانا».

قالتها هيلين بتوتر. اما لوسي فقد تطلعت بجستن وقالت له وهي تهز برأسها:

«لا زلت غير مصدّقة ما حدث. لقد اعتقدنا انك ستظل ارملا الى الابد. ولكنها صغيرة جداً في السن يا عزيزي، وليست على الاطلاق كما كنا نتوقع».

ثم تطلعت بهيلين وقالت لها بشيء من التهكم:

«اعتقد انك شجاعة جداً ايتها العزيزة... اذ تأخذين على عاتقك منذ البداية مسؤولية عائلة جاهزة».

ازداد توتر هيلين، اما لوسي فضحكت وتابعت حديثها قائلة:

«اوه يا عزيزتي، يجب الا يصدمك كلامي الى هذا الحد. كلنا في سلمندر صريحون الى ابعد الحدود، وجستن بوجه خاص معتاد على ملاحظاتي الشنيعة. أليس كذلك ايها الحبيب؟».

انتظرت منه ان يرد عليها بالايجاب، الا انه هزّ برأسه قليلا وقال بجدّية:

«انا، نعم. ولكن زوجتي لم تعتد مثل هذه الملاحظات، وليست مستعدة لأن تعتاد عليها».

ثم تطلع الى القهوة التي تكاد تبرد، فما كان من لوسي الا ان وضعت

يدها على ذراع روجر قائلة:

«يجب الا نقاطع الاحتفال العائلي».

ثم اطلقت ابتسامة جذابة اخرى، ومضت الى القول موجهة حديثها الى جستن:

«يجب ان نعتاد على فكرة انك ترغب في الانفراد لبعض الوقت. ولكن يجب ان تحضر قريباً، كما في السابق، احدى حفلات العطلة الاسبوعية».

وبعد ان سارت خطوتين، وقفت واستدارت نحوهما قائلة:

«وكيف سمحت لنفسي ان انسى؟ مبروك على زواجكما. اتمنى لكما السعادة والهناء».

تطلعت لوسي بعيني هيلين فقرأت فيهما الحيرة، والتشكك، والاشمئزاز... والعداء. ثم همست:

«ولكنكما بالطبع ستكونان سعيدين. وداعاً».

جلست هيلين في مقعدها محاولة طرد تلك الشكوك التي اخذت تراودها بشكل لا يمكن تفسيره، ان لوسي سندانا تعرف الحقيقة. ولكن، أليس من السخافة التشكك بذلك؟! فكيف بامكان لوسي ان تعرف... ان زواجهما لم يكن نتيجة عشق وهيام، بل مجرد اتفاق مبني على المصلحة المتبادلة؟! لا احد يعرف ذلك. فهي لم تخبر مخلوقاً بهذا الأمر، ومن المؤكد ان جستن ليس من الرجال الذين يفضحون مثل هذه الأسرار.

وفجأة مد جستن يده وأخذ منها فنجان القهوة الباردة قائلا:

«اتركي القهوة، ولنشرب شيئا آخر. فنحن هنا لنحتفل... بشيء او بآخر».

وبعد ان استدعى الخادم وطلب منه ما يريد، وضع يديه على الطاولة وانحنى الى الأمام قليلا ثم قال لها برصانة:

«اسمعي يا هيلين. الأفضل ان تعرفي القصة مني قبل ان يتبرع اشخاص آخرون للقيام بهذه المهمة، هذا اذا لم يخبروك فعلا بها. في العام الماضي، كانت لي... علاقة مع لوسي سندانا. وأنا اعلم تماماً الكيفية التي ربط فيها بين اسمينا. واعلم ايضا كيف تعمل عقول الناس في مجتمع كهذا حيث حرارة الطقس القوية معظم ايام السنة تشجع النساء على التجمع في منزل احداهن والبحث عن مواضيع جديدة للثرثرة. وعاجلا

أم آجلا ستشعر احداهن بلذة فائقة وسعادة بالغة عندما تخبرك بأن زوجك اقام علاقة مع لوسي سندانا وانه يخفي عنك هذا الأمر».

«أنا اعرف القصة. ولا داعيَ لتوضيح مسألة حدثت قبل تعرّفي بك».

«اعلم ذلك، ولكني افضّل ابلاغها لك بنفسي».

تلعثمت هيلين قليلا وهي تجيبه:

«نعم... هذا صحيح... ولكن ارجوك الا تقلق... بسبب ما حدث سابقاً».

اجابها جستن بهدوء وبرودة اعصاب:

«لست قلقاً البتة. ولكني اكره الثرثرة والأقاويل، وكيفية زج اسمي في مواضيع قد تقلقك او تضايقك».

«الناس في كل مكان يثرثرون، ولا مفر من ذلك».

«هذا صحيح. ولكن ثرثراتهم وأقاويلهم سوف تنشط الآن مع عودة لوسي. ولذا اردت ابلاغك بكل شيء».

قدّم لها سيكارة فرفضتها بتهذيب. اشعل سيكارته وأخذ نفساً عميقاً ثم قال:

«كنت على وشك الزواج من لوسي. ولكنها... رفضت وجود جولييت معنا... واصرّت على ان ابقيها مع جدّيها في لندن».

شعرت هيلين بأنها في دوامة، ولم تعد تعرف كيف تفكر وبماذا! لقد احب لوسي سندانا، ولكنه فضّل سعادة ابنته ومستقبلها على حبه ورغباته. والسؤال الذي ارادت توجيهه ولم تتمكن... هل لا يزال يحبها؟

«ما بك يا هيلين؟ هل ازعجتك بما قلت؟».

تلعثمت مرة اخرى، وقالت له وهي تفرض على نفسها الابتسام:

«لا... لا. كل ما هنالك... انني لم اتخيل احداً... يرفض وجود جولييت. انها اروع وأطيب طفلة تعرّفت عليها في حياتي».

وترددت قليلا ثم شعرت بأنه يجب عليها ان تقول ما يجول في خاطرها:

«من المؤكد ان لوسي لم تكن تعرف جولييت آنذاك. لأنها لو تعرفت عليها، لكانت...».

«لا يا عزيزتي. لوسي كالفراشة. انها من اللواتي لا يمكن ان يشعرن بأية عاطفة او اهتمام نحو اطفال امرأة اخرى، لا بل ربما يدمّرن اطفالهن هن».

شعرت هيلين بحزن عميق. فما قاله جستن قد يكون صحيحاً، ولكنه يمثّل القسوة والأنانية في هذا العالم المادي! هل كانت لوسي حقاً انانية وبلا قلب الى هذا الحد؟ ثم انتبهت فجأة الى جستن وهو يقول لها برقة وحنان: «حاولي ان تنسي هذا الموضوع نهائيا. انه يفسد امسيتنا التي كنت انعم بها».

ثم سكب كأسين جديدتين ورفع كأسه قائلا:

«لنشرب نخبنا... ونخب جولييت».

بعد قليل دعاها جستن الى الرقص. ومع الموسيقى الحالمة، والضوء الخافت، والشعور بالدفء والأمان بين ذراعيه، زال انقباضها وعادت اليها الابتسامة وراحة البال. وبعدما سألها جستن عما اذا كانت تشعر بتحسن واجابته شاكرة، قال لها:

«انت انسانة طيبة القلب الى ابعد حد، تعانين من مجرد التفكير بما كان سيحدث. صدقيني، لا حاجة لذلك على الاطلاق. لقد اسعدت جولييت كثيراً لأنك منحتها عطف الأمومة. وهذا يسعدني أنا كثيراً، لانه اصبح بامكاني ان ابقيها معي وأنا مرتاح البال... انها تحظى بعناية واهتمام لست قادراً على منحهما لها بمفردي».

يوماً ما سيحتاج حبها، وسيأتي اليها. فما من رجل يمكنه رفض الحب الى الأبد. وعندما يحين ذلك اليوم سيوجه حبه الى زوجته. فهو انسان شريف وذو مبادىء، وبالتالي لن يتحول الى سواها.

رقصا حتى منتصف الليل، وفي طريق عودتهما الى البيت شعرت هيلين برغبة في تمضية المزيد من الوقت مع زوجها. وقبل وصولهما بخمس دقائق طلبت منه بصورة مفاجئة العودة الى البساتين. وبدون ان يحرك رأسه او تخف سرعة السيارة، سألها جستن باقتضاب عن سبب ذلك.

«لا ادري. انها ليلة رائعة، وأنا... اشعر برغبة قوية في... السير قليلا على الشاطىء».

«انك مثل جولييت تماما، عندما تحاول بشتى الطرق تأخير ساعة النوم».

«ألا يثبت ذلك انها كانت ليلة رائعة؟ لقد استمتعت بها الى ابعد حد».

«حقاً؟».

قالها بلهجة هادئة لا تنم بشيء عن مشاعره وعما يختلج في صدره. كيف يمكنها ان تبوح له بما تشعر هي به منذ الرقصة الاولى معه؟ وكيف يمكن ان

تخرجه عن ذلك الصمت المزعج؟ لا، لم تشعر هكذا تجاه اي رجل آخر، حتى كفين. وشعرت بصوت صارخ في اعماقها يقول: أوه يا جستن! لماذا لا تفهم؟ ولماذا لا ازال غير قادرة على الوصول الى قلبك، او على الأقل الافصاح عن مشاعري تجاهك؟ لماذا لا تزال غريباً هكذا عني، وأنا اكاد اجن؟.

توقفت السيارة فجأة فمدت يدها الى جهاز الراديو وأخذت تدير مفاتيحه بعصبية. ثم صرخت:

«كيف يعمل هذا الجهاز؟ اريد الاستماع الى الموسيقى».

فوجىء جستن بتلك النبرة القوية ووجد لها المحطة المناسبة التي تبث انغاماً هادئة وحالمة. ثم قال لها:

«كنت اعتقد انك تريدين السير على الشاطىء».

«لا، اريد ان ارقص».

«ترقصين؟ هنا؟ وفي مثل هذا الوقت؟».

خرجت هيلين من السيارة وأخذت تتمايل في ضوء القمر. ثم اقتربت منه ومدت ذراعيها قائلة:

«ارقص معي».

تقدم جستن خطوة باتجاهها، ثم توقف وقال لها بشيء من الانفعال:

«ماذا حدث لك يا هيلين؟ هل انت مريضة؟».

ردّت عليه محاولة التقاط انفاسها:

«ألم أقل لك؟ اريد ان ارقص مرة اخرى... معك».

انتهت المقطوعة الموسيقية وتبعتها اخرى هادئة. وكانت هيلين تتمايل طوال الوقت مع الانغام. ثم امسكت بيده وشدّته نحوها قائلة وهي تضحك بصوت عال:

«انها سهلة للغاية. وأنت شريك جيد في الرقص. كل ما هنالك استسلم للموسيقى وهي تحملك وتنقل خطواتك».

وافق بتردد، وسار معها بضع خطوات الى وسط تلك الفسحة الصغيرة بين الاشجار. وهناك تمايلت بغنج ودلال وألقت بنفسها عليه قائلة:

«ضمّني الى صدرك. ضمني بقوة».

ابعدها جستن عنه قليلا، وأمسك بيديها بطريقة تقليدية قائلا لها:

«يجب الا ترقصي حافية القدمين!».

تنهدت بقوة وقالت له رافضة:

«أوه، ارجوك. لا تذكّرني بحلبات الرقص العادية. أنا احب الرمال الناعمة والباردة، وأحب ان اغرز بها اصابع قدميّ واصغي الى تنهدات الامواج وموسيقى القلوب».

ثم اسدلت شعرها وهزت رأسها بعنف، فتطايرت تلك السحابة السوداء وكأن عاصفة قوية هبت عليها. صعق جستن وشدّ على كتفها قائلا:

«هذه هي المرة الاولى التي اراك فيها تتصرفين على هذا الشكل الهستيري! هل انت...؟».

«أنا مسحورة. ربما بسبب روعة الليل. ربما لأن في البساتين سحراً و...».

وطوّقته بذراعيها قائلة:

«أنا بحاجة لحبك يا جستن. اريد حبك يا جستن، لا مجرد...».

ابعدها عنه قليلا وسألها بصوت هامس:

«وماذا تعنين؟».

«أوه، جستن. ألا ترى...؟».

انتفض جستن مبتعداً عنها، وقال لها بعصبية:

«هذا جنون يا هيلين. لا تفعلي اي شيء تندمين عليه بمرارة في وقت لاحق».

«اندم!».

وجمدت في مكانها، وماتت على شفتيها رعشة الاعتراف بالحب. واعادتها نظراته القاسية وملامحه المتوترة الى عالم الواقع. فسيطرت على مشاعرها الحائرة، ثم ارغمت نفسها على الضحك، قائلة:

«بربك يا جستن، هل يجب ان تكون مسرحياً الى هذا الحد؟ الندم؟ وهل تعتقد ان اخذ المبادرة في الافصاح عن الحب هو من حق الرجال فقط؟».

حملها جستن ووضعها على المقعد الخلفي ثم اطلق لسيارته العنان. وعندما توقفت السيارة، وقبل ان يخرج منها لفتح الباب الخلفي ومساعدتها على دخول المنزل، قفزت هيلين من السيارة وركضت الى غرفتها، واقفلت الباب.

كيف ستواجهه بعد الآن؟ بعد هذا الجنون؟!

١٠- وكأنها انهيار ثلجي

«هيلين!».

ظلت الفتاة المرهقة تحدق في الجدار البارد امامها ولم تجب. ناداها جستن مرة اخرى، فلم ترد. ارتفع صوته وتوترت نبرته:

«هيلين! هل انت بخير؟».

ارتجفت شفتاها وظلتا مقفلتين بعناد. وبقيت هيلين بدون حراك متمنية ان يمل ويذهب.

«هيلين! ان لم اسمع جوابك فوراً، فاني سأكسر الباب».

آه يا ربي، لماذا لا يذهب ويتركني ادفن احزاني داخل هذه الغرفة المظلمة! الا يعرف انني غير قادرة على مواجهته؟ اريد مزيداً من الوقت...

«هل تسمعيني يا هيلين؟ اجيبي، بربك، والآ...».

وسمعت ضربة قوية على الباب. وضعت يدها على فمها بسرعة متذكرة جولييت التي لا تزال نائمة. وصرخت:

«لا، لا يا جستن! سأفتح...».

وهرعت الى الباب لتفتحه. وعندما سمع القفل يتحرك، دفع الباب بعنف فوقعت هيلين ولكنها لم تصب بأذى.

«اذاً انت بخير! لماذا اوصدت الباب؟ او ربما لا تتذكرين هذا الأمر ايضاً!».

ثم اضاف بلهجة لا تزال غاضبة:

«كيف كان لي ان اعرف انك بخير؟ الم يكن محتملا ان تكوني مريضة؟ ايّاك ان تفعلي بي هكذا مرة اخرى».

ثم تقدم منها واعطاها كوباً من العصير الطازج، قائلا:
«هذا ما تحتاجين اليه في وضعك الحالي».
«وما هو؟».
«انه مزيج من ثلاثة انواع محلية من الخضار، يصفه ابناء الجزيرة لمن هم في مثل وضعك الآن».
«ولكني لست... اعني ان... ربما...».
ولم تتمكن من انهاء جملتها، لأنها لم تكن تقوى على النظر اليه. وبعد تردد وجيز، اخذت منه الكوب الكبير وذهبت الى النافذة حيث ارغمت نفسها على شرب محتوياته. آه كم تمنت في تلك اللحظة ان تشرب فنجاناً من الشاي. ولكنها سمعته يقول:
«اعتقد انه من الافضل لك ان تجلسي. وبعد الانتهاء من شرب العصير، ما عليك الا ان تشربي فنجانين من القهوة المرّة».
انه انسان قوي الشخصية، قاس... حنون... متسلّط... رقيق. اخذ الكوب منها واعطاها فنجان القهوة الساخنة. ثم وضع الكوب على الطاولة واحضر فنجانه وجلس قربها ليشاركها قهوة الصباح. رفعت رأسها بصعوبة فالتقت نظراتهما، وقالت له بهدوء وخجل:
«انا آسفة! لا اعلم... لا ادري ماذا اقول. صدقني يا جستن، انا...».
لم تتمكن من متابعة كلامها، فأحنت رأسها وعادت تحدق في ذلك السائل الاسود الذي تفوح منه رائحة منعشة وقوية.
«اشربي مزيداً من القهوة. ستشعرين بالتحسن خلال فترة قصيرة».
ثم توجه نحو النافذة وازاح الستائر وعاد ليجلس قربها ويتابع شرب القهوة. ولكن ما ان سطع الضوء داخل الغرفة وشاهد احمرار عينيها وآثار الدموع التي انهمرت على خديها اثناء ساعات الليل الموحشة، حتى قال لها بدهشة وحنان:
«كنت تبكين يا عزيزتي! من المؤكد ان البكاء ليس بسبب... اوه يا هيلين! انها ليست مأساة... او نهاية العالم. اطردي الافكار السوداء من رأسك، وانسي الموضوع برمّته فهو غير جدير بلحظة ندم وانزعاج واحدة».

تأثرت كثيراً بالتحول المفاجىء في لهجته وتصرفه، وقالت له محاولة ضبط اعصابها ومنع نفسها من البكاء مجدداً:

«ولكن. . . كيف انسى فظاعة ما حدث؟ كان يوماً رائعاً. . . وعشاء ممتازاً. اني اشعر. . . بخجل فائق. . . و. . .».

«لا، لا. قلت لك ان تنسي الموضوع. انا مستعد لنسيانه تماماً، ان كان ذلك. . .».

توقف فجأة عن اكمال جملته لكي لا يجرح شعورها، وقال مبتسماً:

«حقاً انه كان عشاء رائعاً».

بعد فترة من الصمت الذي خيّم عليهما، لاحظ جستن ان هيلين غير راغبة في تناول طعام الصباح. وعندما سألها عما اذا كانت تريد شيئاً آخر وأجابته بانها ستحضر لنفسها فنجاناً من الشاي، قال لها:

«لا تغادري السرير. سأطلب من ألي ان تعدّ لك ابريقاً بكامله، وسأتأكد من الهاء جولييت كيلا تزعجك. فأنت بحاجة ماسة الى النوم والراحة».

اختفت من وجهه انذاك جميع مظاهر الغضب والانقباض، وحلت محلها النظرات الحنونة والرقيقة التي اعتادت عليها. وما ان خرج من الغرفة، حتى قفزت من سريرها. . . متجاهلة توصياته المشددة، واخذت حمّاماً بارداً ثم ايقظت جولييت وجهزتها للذهاب الى المدرسة.

وبعد ظهر ذلك اليوم قامت ماريز باحدى زياراتها الفجائية وهي تكاد ترقص فرحاً. فمعظم ما تحتاج اليه ليوم زفافها اصبح جاهزاً.

«اخترت كل شيء باللون الأزرق، فهو لوني المفضل، وقد استلمت اليوم الحذاء وحقيبة اليد. كنت خائفة من التأخير فلم يعد هناك سوى ثلاثة اسابيع! وانت يا حبيبتي، ماذا سترتدين؟».

اعترفت هيلين بانها لم تقرر بعد، اذ انها لم تشعر بدنو الموعد الى ذلك الحد. ومضت ماريز في ثرثرتها:

«لقد قررنا ألّا نذهب خارج الجزيرة. سنأخذ عطلة لائقة بعد ان نستقر بصورة نهائية. اني ارغب كثيراً في زيارة دوربن ومشاهدة بعض المتاجر الراقية. ليت هذه الرحلة ليست باهظة التكاليف الى هذا الحد! لقد عاملك جستن بطريقة يجب ان تفخري بها يا عزيزتي، مع ان الرحلة لم

تستغرق الا بضعة ايام. اوه، وهذا الخاتم الرائع!».

«هل تريدين المزيد من الشاي يا ماريز؟».

«نعم، شكراً. بالمناسبة، هل عرفت ان لوسي سندانا عادت الى الجزيرة؟».

تضايقت هيلين من لهجة زوجة ابيها، ولكنها ضبطت اعصابها وردّت قائلة بهدوء:

«نعم. لقد التقيناها امس، عندما ذهبنا لتناول العشاء في مطعم الفندق».

«وما رأيك بها؟».

«انها جذابة للغاية. لم... لم نتحدث معها لفترة طويلة. كانت برفقة روجر درو».

«روجر؟ انه مخطوب، اليس كذلك؟».

«نعم».

ارتفع حاجبا ماريز تعجباً، ثم هزت كتفيها وكأن الموضوع لا يهمها كثيراً وقالت:

«اشك في ان خطوبة روجر ستقلق لوسي او تزعجها ان هي ارادت مرافقته. احمد الله على انك وجستن قد استقر بكما الحال قبل عودتها. انها...».

توقفت ماريز فجأة حين لاحظت وجه هيلين الشاحب، وقالت لها بلهفة:

«هيلين! تبدين مرهقة جداً اليوم. هل انت بخير؟».

«نعم، طبعاً».

«لا، لا يبدو عليك انك بخير».

قالتها باهتمام بينما نسيت لوسي سندانا وكل ما يتعلق بها. ثم خطرت ببالها فكرة جعلتها تبتسم وتسأل بصوت منخفض:

«هيلين، هل انت...؟».

«انا ماذا؟».

«أوه يا حبيبتي، يجب ان تتذكري انك متزوجة الآن... ولكن اعتقد ان من المبكر بعد ان تكوني...».

فهمت هيلين ما تعنيه ماريز. فاحمرّت وجنتاها وقالت لها بنبرة شبه غاضبة:

«لا، است كما تظنين».

«حسناً، حسناً. لا داعي للغضب. كان مجرد سؤال عادي. ربما بعد بضعة اشهر... فهناك متسع من الوقت امامكما».

وقفت ماريز واتجهت نحو الباب مودّعة هيلين بمحبة وحنان ثم استدارت نحو هيلين، التي كانت ترافقها الى الخارج، وقالت لها:

«اعتقد انه من الافضل لك ان تتبرّجي قليلا قبل رجوع جستن الى البيت. لا تهملي نفسك هكذا، فالرجال سرعان ما يلاحظون».

نعم، هذا صحيح. ولكن، هل يلاحظ جستن؟ تطلعت نحو المرآة لحظة، قبل ان تشيح بوجهها بعيداً وقد ازعجها ما شاهدته من تعاسة وبؤس واضحين. وعلى الفور لبست اجمل ما عندها من ثياب، واختارت افضل ما في خزانتها من المساحيق لاخفاء اي اثر للتعب والارهاق. ثم توجّت ذلك كله باختيارها عطرها المفضل لديه، بالاضافة الى تسريح شعرها حسب الطريقة التي يحبها. وجلست تنتظر قدومه...

لم تختلف تحيته لها في تلك الامسية عن سابقاتها. ابتسامة ودية، وكلمة رقيقة، ويد تربّت برفق على كتفها. ثم يفتح ذراعيه لاحتضان جولييت التي تلقي بنفسها عليه وكأنها انهيار ثلجي. وتساءلت للمرة الاولى منذ زواجهما... كيف كان سيحيّيها لو لم تكن جولييت موجودة! هذه سخافة يجب ألا تخطر ببالها مرة اخرى. فلولا جولييت اصلا، لما كانت هناك... ولما تزوجها جستن.

كانت امسية عادية جداً، لم يشر فيها جستن لا من قريب ولا من بعيد لما حدث في الليلة السابقة. بل كان يمزح كعادته ويتصرّف معها وكأن كل شيء على ما يرام.

ومرت بضعة أيام شعرت خلالها هيلين بأن الحاجز النفسي الذي يبعد جستن عنها يزداد اتساعاً. وكان يزيد في المها وتأثرها انها لم تكن قادرة على تبرير هذه المخاوف. فالرجل لم يقم بأية خطوة او يتفوه باية كلمة الا بصورة طبيعية معتادة. اذاً، فلماذا هذا الشعور؟ ولماذا لا تشعر بالراحة وتتصرف بشكل عادي كلما كان قربها؟

وحاولت هيلين التخلص من هذا الشعور المزعج وذكرياته المؤلمة بالتركيز على تدريب جولييت لمدة ساعتين كل يوم. وقد شكرت الظروف لأن الفتاة الصغيرة وافقت اخيراً على البدء بالتدريب قبل الحصول على جميع الاغراض الضرورية دفعة واحدة. ففي احد الايام قالت لها بتأفف:
«هل يجب ان انتظر بعد لمدة طويلة قبل وصول الحذاء؟ الا يوجد احد هنا في السوق يبيع احذية كهذه؟».
«لا، مع الأسف الشديد».
قالتها هيلين بحنان وتفهم تام لمشاعر جولييت التي عيل صبرها. ثم اضافت موضحة:
«احذية الباليه تصنع خصيصاً لهذا النوع من الرقص. ولذلك اضطررنا للكتابة الى لندن لاحضار زوجين لك».
بعد محاورة قصيرة، اقتنعت جولييت بفكرة هيلين البدء بالتدريب على بعض الحركات المعينة. وصباح ذلك اليوم بالذات، وكان اليوم الأول في العطلة الاسبوعية، تركهما جستن وخرج من المنزل مبتسماً بطريقة غامضة. ثم عاد بعد فترة قصيرة وقد تحوّل الغموض في ابتسامته الى فخر واعتزاز.
اشار الى هيلين لملاقاته خارج الغرفة ثم اعطاها علبة صغيرة قائلا:
«قبل ان تراها جولييت، ارجو التأكد من ان بامكانها استخدامهما. واذا كنت تعتقدين ان لا فائدة لهما، فيمكن وضعهما جانباً لتقديمهما هدية في عيدها او في مناسبة اخرى».
فتحت هيلين العلبة لتشاهد خفّين رائعين هما اقرب شيء لأحذية الباليه. وكمعظم الرجال الذين لم، وربما لن، يقدموا في حياتهم على شراء حاجيات تخص النساء او الفتيات. قال جستن:
«اردت شراء الخفين حتى ولو لم تستخدمهما في الرقص. هل ينفعانها قليلا في مجال التدريب؟».
«انا متأكدة من انهما سيكونان مفيدين، بطريقة او باخرى. اذهب واعطهما لها بنفسك. انها ستطير فرحاً».
اخذ العلبة وتوجه نحو باب القاعة، ثم استدار نحوها ورمى بعلبة مشابهة، قائلا لها:
«التقطي. هذه لك!».

تحوّلت دهشتها الى سرور بالغ وهي تخرج خفّين مماثلين لا يختلفان بشيء عن خفي جولييت الا من حيث الحجم واللون. فقد اختار اللون الازرق لابنته. . . والوردي لزوجته.

«والان ايتها الفنانة الصغيرة ارجو ان تتبعيني مع مدربة الرقص الجميلة الى الغرفة الخاصة التي اعددتها لكما».

كان جستن قد حوّل تلك الغرفة الكبيرة الاضافية في الجانب الخلفي للفيللا الى قاعة تمرين ناجحة جداً. فأرضيتها الخشبية اللمّاعة، ونوافذها العديدة الواسعة، والاجهزة الموسيقية الحديثة، والكنبة الكبيرة المريحة، اجتمعت كلها لتجعل من تلك الغرفة مسرحاً مثالياً لتدريب جولييت.

وبدأت التمارين اليومية. ساعة في الصباح الباكر، وساعة في المساء. وفي بداية الأمر كان جستن ممنوعاً منعاً باتاً من حضور التدريبات. وقد صدر قرار المنع عن جولييت، التي قالت لوالدها:

«انها مجرد تدريبات نقوم بها في البداية. ليس هناك من رقص على الاطلاق، بل محاولات تنسيق و. . . وهيلين ايضاً، تشعر وكأنها قضيب حديدي علاه الصدأ. . .».

تطلع جستن بهيلين وقال مقاطعاً ابنته:

«من المؤكد انك لا تشبهين قضيباً حديدياً يعلوه الصدأ. ولكني اشعر بان وجودي غير مرغوب فيه. سأترككما الآن. انتبهي الى رجلك يا هيلين».

ثابرت جولييت على التدريب وأفرحت هيلين كثيراً بتفهمها السريع والكامل للناحية النظرية، وحفظها الرائع للتعابير الفنية لجميع التمارين. ومما اثار الفتاة الصغيرة واسعدها الى حد كبير، استخدام الفرنسية لغة للرقص. وكانت تفرح كثيراً كلما تمكنت من اطلاع والدها على مفردات او جمل جديدة عندما يسألها كل ليلة تقريباً عن مدى تقدمها.

وفي احدى الامسيات فاجأته جولييت بقدرتها على تنفيذ الخطوات الأساسية الاولى بشكل جيد وملفت للنظر. وبعد ان ذهبت مسرورة الى فراشها، تطلع جستن بهيلين قائلاً:

«ولكني، جدّياً، لم اكن اظن ابداً ان هناك هذا القدر من العمل والتعب ليصبح الانسان راقص باليه!».

«هذا ليس كل شيء».
وخلعت هيلين خفيها وجلست على الكنبة، ثم تابعت حديثها:
«على الراقصة ان تكون مطلّعة على الانغام الموسيقية بتفاصيلها. كما عليها ان تتعلم شيئاً عن جوانب فنية عدة وتاريخ اشكال الرقص، وذلك لكي يصبح لديها انطباع اوسع يساعدها على التعبير عن نفسها باسلوب اشمل».
هز برأسه اعجاباً وقال:
«اتصور ان انجازات الراقص هي ربما اعظم الانجازات الفنية واصعبها. فالعازف تكون آلته موجودة وجاهزة، وما عليه الا ان يبرع في عزفه عليها. اما آلة الراقصة فهي جسدها. وعليها اولاً ان تصوغه في القالب المطلوب، وتدربه وتضبط حركاته، قبل ان يصبح جاهزاً للرقص».
حدّقت به هيلين متعجّبة من هذا التفسير المنطقي الشاعري. وقبل ان تعلق بشيء على ما قاله، سمعته يضيف:
«لقد راقبتك كثيراً في الأونة الأخيرة ورأيتك تمشين، وتركضين، وتقفزين مع جولييت، وفي احدى المرات... ترقصين. ولم اشاهد طوال هذه الفترة اي عرج في رجلك او انزعاج منها. وقلت لنفسي مرة ان رجلك شفيت تماماً، وانه لم يعد هناك اي سبب يمنعك من العودة الى الباليه... مستقبلا. ولكن، بعد ان شاهدتك تعملين مع جولييت، عرفت مدى الصعوبة. فالعازف الماهر لن ترضيه آلة موسيقية تعرضت لخلل مهما كان صغيراً او بسيطاً».
ابتسمت هيلين وقالت له، وهي تحاول اخفاء الرعشة من صوتها:
«هذا صحيح. ولكن المحزن هو انني لا اتمكن من استبدال المفتاح المعطّل او شراء آلة جديدة».
«انا متأسف جداً».
وغرق جستن في صمت مطبق، فيما حولت هي نظراتها الى الأفق البعيد واخذت تفكر. الجزيرة لم تعد تبدو غريبة عنها... وكذلك الحسرات الليلية... والأمطار الاستوائية الغزيرة التي تهطل بضع مرات فقط وتختار عادة ساعات بعد الظهر. الماضي وحده يبدو الان بعيداً... بعيداً جداً.

«استيقظي!».

استدارت قليلا فشاهدت جستن يقف قربها ويناولها كوباً من العصير.

«انه مفيد جداً لك. لا اعني العصير. . . بل هذا الاهتمام الجديد لجولييت برقص الباليه، والذي آمل في الآ يخف او يتلاشى».

ثم تردد لحظة واضاف:

«انك. . انك تبدين الان وكأنك استعدت قليلا من سعادتك وفرحك».

تجاهلت نظراته الحنونة وملاحظته الرقيقة قائلة:

«ان اهتمام جولييت قد يكون صرعة مؤقتة، وهذا امر طبيعي بالنسبة لسنها».

«نعم، ولكني لم اكن افكر بجولييت، بل بأستعادتك الثقة بالنفس».

سار نحو النافذة ووقف فترة يتأمل الاشجار، ويصغي الى حفيف اوراقها. ثم التفت نحوها قائلا بهدوء:

«من المحتمل ان يثبت الوقت ان الحادثة لم تكن بالخطورة التي تتصورين. وحكم الطبيب ليس نهائياً ومبرماً. فالطبيب انسان، والانسان يخطىء. وانا متأكد ان طبيبك سيفرح كثيراً لو ثبت له انه لم يكن مصيباً في تشخيصه الضرر الذي لحق بك»؟.

اقترب منها ووقف امامها متأملا وجهها برقة، ثم وضع يديه على كتفيها قائلاً:

«انا لا احاول رفع معنوياتك، ولكني افكر منذ بعض الوقت في عرض حادثتك على طبيب اختصاصي ماهر في دوربن. وبمجرد موافقتك، سأباشر في اعداد الترتيبات الضرورية».

كانت دهشتها قوية لدرجة انها لم تتمكن من التفوه بشيء. فما كان منه الا ان اضاف مشجعاً:

«ولم لا؟ وهل من ضرر في المحاولة؟ اليس هذا ما تريدينه اكثر من اي شيء آخر في العالم؟».

بعد فترة طويلة من اجابتها المتلعثمة والمترددة، وتغييره الموضوع الذي يؤلمها كثيراً، ظل سؤاله يضج في رأسها طوال ساعات الليل. نعم، فهي لا تزال تحن كثيراً الى الرقص. ولكن حنيناً آخر دخل حلبة المنافسة من بابها

الواسع. صحيح انها تريد العودة الى الرقص.. . ولكنها تريد شيئاً آخر اكثر من ذلك. . . تريد حبه لها.

ما هي الاسباب التي دفعت جنتن الى تقديم مثل هذا الاقتراح؟ هل يتطلع الى اليوم الذي؟ لقد مرّت ثلاث سنوات تقريباً على زواجهما، ولم يتغير شيء. هل يريد حريته؟ هل ينوي فك الارتباط؟

توترت اعصابها وشعرت بحزن عميق وهي تتقلب في فراشها غير قادرة على النوم. عليها ان تواجه احتمال تخليه عنها وتبحث في امر مستقبلها. واذا كانت عودتها الى رقص الباليه التقليدي امراً مستحيلاً، فان هناك مجالات واسعة اخرى في عالم الرقص، مثل التلفزيون. . . والمسرحيات الغنائية. . . والنوادي الليلية! ولكنها لا تريد اياً من هذه الاحتمالات! انها لا تريد اي شيء سوى. . .

لماذا. . . لماذا طرح فجأة فكرة احتمال عودتها الى الرقص؟ هل كان ذلك نتيجة. . .؟ هل هناك اية علاقة بين هذا الاقتراح المفاجىء. . . وعودة لوسي سندانا؟

لم تنم هيلين تلك الليلة وظلت تفكر وتتقلب حتى الفجر. ومع بشائر الضوء الاولى، نهضت من سريرها واخرجت رزمة صغيرة كانت مخبأة بعناية في حقيبتها منذ وصولها الى الجزيرة قبل ثلاثة اعوام.

فتحت الرزمة واخرجت حذاء الباليه الوردي الذي اشترته قبل يومين من حادثة الدرّاجة. لقد حان الوقت لتجيب بنفسها، وبالطريقة الوحيدة المتاحة لها، على سؤال يقض مضجعها منذ سنوات. هل تتمكن ام لا؟ الآن ستعرف الجواب، لأنها سترقص! ونتيجة المحاولة هي التي ستقوي او ستقطع ذلك الخيط الرفيع الواهن الذي يربطها بماضيها.

اعدّت نفسها وكأنها سترقص في اشهر المسارح وامام مئات من المعجبين والنقاد. وعلى انغام تشايكوفسكي بدأت رحلة السعادة. نعم بامكانها ان ترقص مرة اخرى. . . نعم. . . نعم. . . نعم. وشعرت انها تعطي في تلك الرقصة ما حرمت من اعطائه في سنوات ثلاث. فحلّقت وابدعت. ومع اقتراب الرقصة من ذروتها، قفزت هيلين في الهواء وحطت. . . كطائر جريح. فقدمها المصابة لم تتحمل. . . وسمعت صرخة قوية:

«هيلين! هيلين! رجلك التوت! هل كسرت؟ هل تتمكنين من

تحريكها؟».

رفعت رأسها باتجاه الفتاة الصغيرة المذعورة التي كانت لا تزال بثياب النوم، وقالت لها وهي تحاول ارغام نفسها على الابتسام:

«لقد زلت بي قدمي. لا تخافي يا حبيبتي، فالألم سيختفي خلال لحظات».

«كنت رائعة ومبدعة في رقصك. اوه يا هيلين! هل باستطاعتك الوقوف؟».

ثم خرجت من الغرفة راكضة وهي تصرخ:

«ابي، ابي! هل انت مستيقظ؟ يجب ان نحضر الطبيب! رجل هيلين تؤلمها كثيراً».

تحاملت هيلين على نفسها ووقفت واضعة معظم ثقلها على الرجل الصحيحة، ونادت جولييت قائلة:

«عودي الى هنا فوراً. لا تزعجيه! انا بخير، صدقيني!».

عادت جولييت غير مصدقة تماماً كلام هيلين ثم قالت:

«ربما كسرت قدمك! يجب ان يستدعي ابي الطبيب».

«لا يا حبيبتي، انها ليست مكسورة. كان مجرد انزلاق بسيط».

انها بلا شك متألمة وخائفة. ولكنها تابعت حديثها باصرار:

«سيزول الوجع خلال فترة قصيرة. يجب الا تخبري والدك لأنه...».

«الا تخبرني بماذا؟ هل هناك من مشكلة او..؟».

ودخل الغرفة قادماً من الشرفة، وعندما شاهد زوجته المتألمة، صرخ مستفهماً:

«هيلين! ماذا حدث لك؟».

«لا شيء... انا آسفة جداً على هذه الجلبة والبلبلة اللتين احدثتهما. لقد اردت فقط ان...».

«لا يا ابي! لقد زلت قدمها. انا شاهدتها وهي تقع. انها غير قادرة على السير».

«لا تبالغي يا جولييت، ارجوك».

لم يعلق جستن بشيء على جملة هيلين، بل انحنى الى الارض والتقط حذاء الباليه ثم استوى واقفاً وقال لهيلين متعمداً عدم الاقتراب منها:

«تفضلي».
كان ردّ الفعل الطبيعي على دعوته الواضحة، السير نحوه لاستلام الحذاء من اليد الممدودة نحوها. وما ان حاولت ذلك حتى كادت تقع. فرمى جستن الحذاء وتلقاها بين ذراعيه قبل ان تهوي الى الأرض.
هرعت جولييت وفتحت غرفة هيلين، فلحق بها والدها الذي كان يحمل زوجته برفق وحنان. ثم قال لابنته الحزينة:
«اذهبي بسرعة الى آلي واطلبي منها ان تعدّ بعض الشاي، فوراً. ثم عودي الى غرفتك وارتدي ثيابك. انا سأعتني بهيلين».
اطاعته جولييت بتردّد، فأغلق الباب وراءها ثم استدار نحو هيلين قائلا لها بلهجة قلقة:
«لماذا التسرع؟ الم يكن بامكانك الانتظار لحين اجراءفحوصات طبية على القدم المصابة، قبل الاقدام على مثل هذه المحاولات؟».
«لقد وفرت عليك نفقات الرحلة والطبيب والاقامة. جرّبت حظي... وفشلت. والآن اصبحت متأكدة من انهم لم يخطئوا معي في لندن... عندما قالوا لي ان العودة الى الباليه... مستحيلة».
جلست في سريرها ثم قالت دون ان تنظر اليه:
«ستكون بخير بمجرد ان اريحها قليلا».
«وهل انت متأكدة من ذلك؟ علينا اولا ان نعرف مدى الضرر الذي الحقته بها اليوم».
توجه جستن الى الغرفة الثانية وعاد منها بعد قليل وهو يحمل صندوق الاسعافات الاولية. ثم قال لها:
«سأربط قدمك الآن ثم نضع عليها قليلا من الثلج لعل ذلك يخفف التورم. واذا ظلت متورمة، سنضطر لاستدعاء الدكتور بيارن».
وبعد ان فتح الصندوق واخرج منه لفّة كبيرة من الرباط المطهّر، التفت نحوها وقال لها بلهجة من نفد صبره:
«هيا يا صغيرتي! لا تجلسي هكذا! اخلعي جوربيك».
ارتبكت هيلين قليلا وقالت له متلعثمة:
«هذا... هذا سروال ضيق... خاص بالباليه. وساضطر لخلع... بقية ملابسي... قبل ان اتمكن... من خلعه».

تنهد جستن متضايقاً وقال:

«وما هي المشكلة؟ انت زوجتي، هل نسيت ذلك؟».

وقبل ان تتحرك او ان ترد عليه بشيء، كان جستن قد بدأ يساعدها في نزع ثيابها.

«والآن، بعد ان تخلصنا من مشكلة الخجل والاحتشام، هل من الممكن ان نحوّل اهتمامنا الى القدم المتورمة؟».

رفعت قدمها المصابة والقتها على الكرسي الصغيرة التي وضعها امامها، فربطها جستن برفق قائلا:

«تبادل المساعدة هو جزء لا يتجزأ من العلاقة الزوجية. وانا اريد مساعدتك من كل قلبي، فلا ترفضي».

احضر كيساً من قطع الثلج ووضعه على قدم هيلين، بعد ان ساعدها على الجلوس في سريرها وقال لها بحنان واضح:

«انا آسف جداً لما حدث لك. الكلمات تعجز عن وصف مدى اسفي وتأثري».

ثم ربّت على كتفها برقّة ونعومة قائلاً:

«حاولي الا تحزني يا صغيرتي، حتى ولو كان الالم الجسدي والنفسي لا يطاق. فالحزن يسبب المرض والاعياء».

«سأكون بخير خلال فترة قصيرة، باذن الله. اعتقد انني كنت اعلم في اعماقي ان مثل هذه الحادثة ستقع... ولكني اردت التأكد».

«يؤسفني جداً انّ المحاولة لم تنجح. ما من شيء نريده فعلا في هذه الحياة ويتحقق».

ثم توجه نحو الباب متأففاً:

«اوه، اين ألي وهذا الشاي الذي تعده؟».

١١-القرار الآخر

انهى الدكتور بيارن ربطه للقدم المصابة قائلا:

«يجب ان ترتاحي. . . وان تمتنعي عن الرقص».

ابتسمت هيلين بجهد وقالت له:

«وهل ستطول المدة؟ اعني. . . ما هو الوقت الذي ستستغرقه عودتي الى الوضع الطبيعي؟».

هزّ الدكتور بيارن كتفيه، واجابها بهدوء:

«الأمر يتوقف عليك انت يا عزيزتي، وعلى ما تعنيه بالوضع الطبيعي. قدمك سبق ان تعرضت لتمزق في الانسجة الخارجية للرسغ. وبما انك تعرفين ذلك، فقد استغربت جداً ان تقدمي على تلك المجازفة المتهورة. رقص الباليه بشكل خاص يتطلب قدمين سليمتين مئة في المئة».

ثم تطلّع بجستن وأضاف:

«يجب الا يقع اي ضغط على هذه القدم قبل زوال التورم. وحتى عند ذلك. . .».

عقد جبينه ونظر الى صور الأشعة المعلقة امامه قائلا:

«اخشى انه سيكون هناك ضعف دائم في هذه القدم. وأريد تحذيركما بشكل جدّي من احتمال تطور المشكلة الحالية، مع مرور الزمن، الى التهابات في المفاصل».

خيّم صمت مطبق في عيادة الطبيب، قطعه جستن قائلا:

«لن تحدث بعد الآن اي اعمال سخيفة تؤدي الى مشاكل كهذه. وسوف اتأكد من ذلك بنفسي. شكراً لك يا دكتور. هيا بنا يا هيلين».

كانت جولييت تنتظرهما في السيارة. وعندما شاهدتهما يخرجان من

العيادة، ركضت نحوهما وسألت بتشوّق:

«هل ستتحسن قدمك بسرعة لكي تتمكني من حضور العرس؟».

اجابها والدها وهو يساعد زوجته على دخول السيارة:

«فكرة حضور حفلة الزفاف لم تعد واردة. هيلين يجب ان ترتاح».

شعرت جولييت بغصة وقالت بلهجة حزينة:

«ولكن الزفاف سيتم بعد غد! بامكانها ان ترتاح اليوم وغداً... ثم... ثم تأخذها بالسيارة، وتجلس هناك على كرسي طوال فترة الحفلة».

«اوه يا جولييت! لا تكوني سخيفة! نقلها الى مكان الحفلة لا يشكل اي معضلة على الاطلاق. ولكنك انت المشكلة، اذ انك لا تقدرين على الجلوس في مكان واحد اثناء حفلات الزواج... وخاصة هذه».

كانت تلك احدى المرات النادرة التي يفقد فيه جستن صبره مع ابنته. وقد شعرت جولييت بأن والدها متوتر الاعصاب فسكتت على مضض محاولة اخفاء حزنها وتأثرها. وكانت هيلين تعرف مدى تشوق الفتاة الصغيرة لحضور تلك المناسبة السعيدة. فوضعت ذراعها على كتفيها وضمتها قائلة لها بمحبة وحنان:

«ولكن لا يزال بامكانك الذهاب، مرتدية فستانك الجديد، واخباري في وقت لاحق عن كافة التفاصيل».

لم يحرّك جستن ساكناً، فقالت له هيلين:

«ستأخذها الى الحفلة، أليس كذلك؟».

اجابها ممتعضاً بعض الشيء:

«اعتقد ذلك. أنا... أنا لا احب حفلات الزفاف، حيث يضطر الانسان ان يتنقل بين الناس وأن يكون مرحاً مع اشخاص كثيرين لا يعرفهم... وليس مهتماً على الاطلاق بالتعرّف اليهم».

استغربت هيلين تلك الملاحظة كثيراً. فاما انه مهتم بها اكثر مما تتصور، واما انه مستاء من اشخاص معينين يعرف انهم سيحضرون حفلة الزواج.

«في اي حال، أنا لا افهم لماذا هذا الحماس الشديد عند جولييت لحضور حفلة الزفاف! لو انها احدى اشبينات العروس لعرفنا السبب. ولكنها...».

ظلت هيلين صامتة. فتلك لم تكن اللحظة المناسبة لشرح مدى الأهمية

التي تعلقها فتاة بعمر جولييت على ارتداء فستان جديد لحضور احدى حفلات الكبار، وعلى كونها الطفلة الوحيدة المدعوة الى الحفلة. ومما زاد في حزن هيلين ان دروس الرقص سوف تتوقف لفترة لا تعرف مداها، ولا تجرؤ حتى على التفكير بها.

وفي صباح اليوم التالي، حاولت جولييت التدرب بمفردها. ولكن الرقص، وخاصة الباليه، لا يمكن اتقانه او التدرب عليه بطريقة صحيحة اذا اكتفى المدرب بتوجيه التعليمات النظرية. يجب ان تقوم بالحركات المطلوبة امام جولييت لكي تقلّدها وتتبع خطاها. وكيف يمكنها ذلك وهي . . . شبه مقعدة؟ وبكت هيلين تأثراً واستياء، وقد اضاف جستن الى همومها عقدة الشعور بالذنب. اذ انه اخذ يتصرف بعصبية ظاهرة مع جولييت، في حين انه يعاملها هي بكثير من الصبر وطول الأناة. . . ويعمل جاهداً للعناية بها وتأمين راحتها، على الرغم من احتجاجاتها المتكررة.

وصبيحة يوم الزفاف، قال لها بهدوء وحنان:

«لو ان جولييت مريضة لكنت قربها ليلا ونهاراً، أليس كذلك؟».

«نعم، ولكن الأمر مختلف».

«كيف؟ لو حدث لي شيء ما فانك بكل تأكيد ستكتشفين في نفسك مواهب التمريض والتطبيب. اذن، اين هو وجه الاختلاف؟».

ابتسمت هيلين ولم تعلق بشيء على جملته الاخيرة. فهذا هو النوع من المنطق الذي يستخدمه الرجال عندما لا يريدون متابعة النقاش.

«سأساعدك الآن للذهاب الى الشرفة وتأمين كل ما يلزمك هناك اثناء حضورنا ذلك الزفاف اللعين. واذا شعرت بالحر في الخارج، فاطلبي الي. لا تدخلي الى القاعة او الى غرفتك بدون مساعدة. لا يمكن المجازفة بالحاق مزيد من الضرر بهذه القدم. مفهوم؟».

«نعم».

قالتها متعبة، وقد شعرت فجأة برغبة قوية لأن يضع ذراعيه حولها، ويضمها اليه، و. . . اوه، انها خطوة لا أمل فيها. . . فهو لن يقدم عليها ابداً. انه يهتم بها ويرعاها، ولكنه لن يقع في حبها. ها هو الآن مثلا يتأكد من ان بقربها عدداً كبيراً من الكتب والمجلات، وابريقاً من الشاي، وكمية متنوعة من الفاكهة، و. . .

«والآن، اين هي جولييت؟».
«هنا يا ابي».
وخرجت الى الشرفة وهي لا تزال ترتدي سروالها القصير الأزرق وجلست على كرسي صغير قرب هيلين.
«هل انت مستعدة؟».
«لا يا ابي. فأنا لست ذاهبة».
دهش جستن وقال لها بتعجب:
«لست ذاهبة معي؟ لا تريدين حضور الزفاف؟».
اجابته ابنته بلهجة جدية لا تراجع فيها:
«لا. لقد غيّرت رأيي. لم اعد راغبة في الذهاب».
تدخلت هيلين، وقد اصيبت هي الأخرى بالدهشة لهذا التحول المفاجىء، قائلة:
«ولم لا يا حبيبتي؟ كنت اظنك متشوقة لحضور حفلة الزفاف، وارتدا فستانك الجديد، وتسليم الهدية بالنيابة عنا، وأكثر من ذلك... لكي تحضري لي قطعة من كعكة الزواج».
«ابي يمكنه تسليم الهدية واحضار قطعة من قالب الحلوى».
«أهذا ما تظنين ايتها الآنسة؟ أنا كنت سأذهب لأجلك. اما الآن، فق وفرت عليّ مشقة الذهاب. سأتصل بزوجة أبيك يا هيلين للاعتذار ع حضور اي منّا حفلة زفافها».
تضايقت هيلين كثيراً، خاصة ان جستن الغاضب وجولييت الثائر المتمردة كانا على وشك البدء بشجار لن يؤدي الا الى المزيد من التوتر فقالت محاولة رأب الصدع:
«لقد تأخرنا كثيراً للاتصال. فمن المؤكد انها الآن في طريقها الى الفندق حيث سيتم زفافها. وأنت يا جولييت، اذا كنت تعتقدين انك مضطر للبقاء معي كيلا اظل بمفردي، فأنت مخطئة يا حبيبتي. اني اتمنى...».
وضعت هيلين ذراعها على كتفي جولييت وشدتها اليها قائلة والدمو تنهمر من عينيها:
«هذا كله بسببي أنا. فلو لم...».
«لا ليس بسببك ابداً».

قلما جستن بعصبية ملحوظة، ثم اشعل سيكارة وسار نحو الطرف الآخر للشرفة. وبعد لحظات من الصمت المشبع بالتوتر، استدار نحو هيلين قائلا:

«أنا آسف جداً. سأذهب بمفردي. اظن ان اللياقة تقضي بوجود احدنا هناك. اما انت ايتها الآنسة، فسيكون لي معك حديث مطوّل لدى عودتي».

انحنى جستن وقبّل رأس هيلين ثم قال لها:

«لن أتأخر في العودة... بعد ساعتين على ابعد تقدير. سأبلغ ماريز اشواقك وتحياتك».

لم تقل جولييت شيئا حتى اختفت سيارة والدها تماما. وعندها تنهدت وقالت:

«انه في حالة من الغضب الشديد».

«نعم، ولا يدهشني ذلك ابداً. فماذا حملك على تغيير رأيك، بعد ان عملنا جاهدتين على اقناعه بأخذك معه؟».

«لأنه لم يكن راغباً فعلا بذلك. وعندما يكون الانسان مكرهاً على القيام بعمل ما، او على الأقل مضطراً لتنفيذه، فان النتيجة لن تكون بالمستوى المطلوب».

وصمتت جولييت لحظة ثم تابعت حديثها بشيء من التحدي:

«لو ذهبت معه اليوم، لكان حرمني من التمتع الكلي بوقتي. ولهذا رفضت الذهاب».

كانت هيلين تستمع الى كلمات جولييت وتراقب في الوقت ذاته تلك الاصابع الصغيرة التي تتحرك بعصبية وانفعال. ثم تنبّهت الى احتمال وجود أمر آخر يقلق الصبية الصغيرة، فقالت لها بهدوء:

«هل تذكرين ما قلته لي مرة من ان الناس ليسوا دائما طيبين في بيوتهم كما هم خارجها؟ كنت تحاولين القول آنذاك ان الناس يتظاهرون بأنهم طيبون عندما يلتقون الغرباء او الذين لا يعرفونهم حق المعرفة، في حين انهم يظهرون على حقيقتهم مع افراد عائلاتهم. ولكن ما من انسان يمكنه ان يكون دائماً سعيداً وجذاباً وقادراً على ترفيه الآخرين كل الوقت. فحياة كل انسان منا، راشداً كان ام طفلا، تتخللها احزان كثيرة ومشاكل مقلقة.

هل تفهمين ما اعنيه؟».

هزت جولييت رأسها وظلت صامتة، وكأنها تحاول تحليل ما تستمع اليه من نصائح وارشادات. ثم تابعت هيلين حديثها:

«والدك يا حبيبتي هو احد اكثر الناس الذين عرفتهم حناناً واحساساً وتفهماً. وهو يحبك كثيراً. ولكن يجب ألا تنتظري منه ان يكون دائماً فرحاً ومرحاً معك. اذ لا يمكنك توقع ذلك من اي انسان، مهما كان طويل البال ومراعياً لمشاعر الآخرين».

«اعرف ذلك. واعتقد انه يتصرف على هذا النحو لأنه قلق على قدمك، ولأنه...».

رفعت رأسها نحو هيلين وسألتها بلهفة:

«هل صحيح انك كنت فعلا تنوين العودة الى المسرح؟».

شعرت هيلين وكأن كمية من الماء البارد القيت عليها، وردّت على جولييت بتلعثم:

«أنا... أنا... لماذا توجهين مثل هذا السؤال؟ أنا لم أقل اني سأغادركما. أنا جزء من هذه العائلة... من هذا المكان».

ثم نظرت الى قدمها المصابة وقالت:

«اضافة الى ذلك، فكيف يمكنني العودة الى رقص الباليه بقدم كهذه؟ اسمعي يا حبيبتي، أنا لن اتمكن ابداً من العودة الى الباليه... ابداً!».

«كنت تنوين عرض قدمك على طبيب اختصاصي في دوربن لمعرفة ما إذا كان بامكانك العودة الى الرقص. لقد سمعتكما أنت وأبي تتحدثان عن هذا الموضوع. سألت ابي فقال ان ذلك محتمل. الا ان هناك ايضا اموراً اخرى».

«وما هي هذه الأمور الأخرى؟».

«لا اعلم. ولكنه قال ان عودتك ستكون لصالحي، لأنني سأكون في انكلترا وسأتمكن من مشاهدتك اكثر بكثير مما لو كنت هنا».

صمتت جولييت قليلا، ثم لاحظت ان هيلين لم تكن على ما يرام، فسألتها بصوت خافت:

«هيلين، ما بك هكذا خائفة؟ لقد امتقع لونك!».

وعندما لم تسمع جواباً، اغرورقت عيناها بالدموع والقت بنفسها على

زوجة ابيها، التي تعتبرها اماً واختاً وصديقة، وقالت:

«ارجوك يا هيلين، لا تذهبي! لا تذهبي ابداً. ارجوك ايضا ان تقنعي والدي بعدم ارسالي الى انكلترا او اي مكان آخر. اوه، يا هيلين، لماذا لا نتمكن من البقاء معاً طوال حياتنا، كما تفعل بقية العائلات؟».

ضمتها هيلين الى صدرها بمحبة وحنان، وقالت لها والغصة في قلبها:

«اننا معاً يا حبيبتي، فلا تحزني. ان من الخطأ التفكير كثيراً بما سيحدث مستقبلا. ومن الأفضل ان نفكر بالحاضر، وبما لدينا الآن. سننجح يا جولييت، صدقيني. ويجب الا تغيظك اشياء قد لا تحدث ابداً».

وتمنت هيلين في قرارة نفسها ان تكون تلك الكلمات المقنعة انعكاساً لحقيقة ما يدور في رأسها. ثم أرغمت نفسها لتبدو هادئة، وابعدت جولييت عنها بلمسة رقيقة قائلة:

«اطلبي من آلي ان تحضر لي فنجاناً من القهوة، واسأليها ايضا عما اذا اعدّت بعض الحلوى».

بعد شرب القهوة واشتراكهما في احدى ألعاب جولييت التعليمية، قالت الفتاة الصغيرة:

«اظن انه مضى اكثر من ساعتين على ذهاب والدي. هل ننتظره على الغداء؟».

«لا اعتقد ذلك. لأنه سيأكل عدة اشياء اثناء الحفلة».

«هذا صحيح. وربما امضى وقتاً اطول لأنه بالطبع لم يعد مضطراً للعودة في وقت معين بسببي أنا».

يبدو ان تحليل جولييت كان صحيحاً. اذ انه مضت ساعتان على تناولهما الغداء قبل ان تصرخ الفتاة معلنة وصول والدها. رأت هيلين سيارته تدخل الساحة الخارجية، ثم اعربت مع جولييت عن الدهشة عندما شاهدت سيارتين أخريين تدخلان الساحة.

«معه العمة ماريز والسيد مانتون! اذن، فحفلة الزفاف قد انتهت. آه، وهذه نورين و...».

توقفت جولييت عن انهاء جملتها فيما كان ركاب السيارات الثلاث ينزلون منها. وبلغت دهشة هيلين ذروتها عندما شاهدت زوجها ينزل من سيارته ويفتح الباب بلياقة لصبية رائعة الجمال... لوسي سندانا! ولبضع

لحظات شعرت ان الآخرين غير موجودين. . . وان هناك لوسي وحدها!
«لم تتمكني من حضور الزفاف، فأحضرناه لك».
قالها كيت مانتون ضاحكاً وهو يقفز الدرجات الثلاث ويعانق هيلين بحرارة. وبعد ان تأملها لحظة قال لها باعجاب:
«انك رائعة يا هيلين، كما كنت دائماً.»
وقبل ان تتمكن من الرد عليه او تهنئته بزفافه، قبلها على جبينها وقال مازحاً:
«اعتقد انه يمكن اعتباري الآن كزوج امك لأنني تزوجت زوجة ابيك. ولذا يحق لي تقبيلك كابنة لي. كيف قدمك الرقيقة الآن؟».
«افضل نوعاً ما، على ما اظن. اوه، كم كنت اتمنى ان اكون معكم جميعاً. أنا. . .».
وتوقفت عن الكلام عندما انحنت ماريز وعانقتها بحرارة ومحبة، ثم بدا ان الجميع تجمهروا على الشرفة، وأخذ كل منهم يعانقها بدوره ويسألها عن حالها. . . باستثناء لوسي سندانا، التي ظلت بعيدة عنها. . . قرب جستن.
بدأ الهرج والمرج خلال دقائق قليلة، وبدا كأن احتفال الزواج قد انتقل الى فيللا ميموزا. وتعالت الضحكات والقهقهات وكان الجميع في سعادة بالغة، ثم اقتربت منها نورين وهي ممسكة بيد راي سندانا وغمزتها قائلة، وهي تشير الى خاتم الخطوبة في اصبعها:
«أنا وراي ايضا مستعدان لتقبّل التهاني».
تمنّت لهما هيلين التوفيق والسعادة. وما ان انتهت من تمنياتها حتى سمعت صوتاً ناعماً وصافياً يقول:
«ما اكثر حفلات الزفاف في الأونة الأخيرة. انها تجعلني اشعر بالوحدة».
ابتسمت لوسي وهي تتكىء على الكنبة التي تجلس عليها هيلين. ثم عقدت جبينها وهي تنظر الى الرباط الأبيض العريض الذي يلف القدم المصابة وقالت:
«لماذا لم تخبرينا بما حدث؟ لقد اكتشفت لتوّي ان الحادثة وقعت قبل حوالى اسبوع! اعربت عن غضبي الشديد لجستن لأنه كان بامكاننا ان نعد

لك شيئا ما. لا شك أنك تشعرين بضجر قاتل لأنك غير قادرة على التنقل».

«هل تشعرين بالضجر يا هيلين؟».

خرجت الكلمات جافة من فم جستن، الذي كان يقف صامتاً وراءها بدون ان تعرف بوجوده. تمتمت هيلين بنفي شعرت ان اياً منهما لم يعره اهتماما، اذ سارعت لوسي الى القول بوجه بشوش ضاحك:

«طبعاً انها تشعر بالضجر. من منا لا يشعر بالملل في مثل هذه الحالة؟ أنا قد أجن اذا وقعت لي مثل هذه الحادثة».

«أنت يا لوسي؟ لا يمكنني ان اصدق ذلك».

كانت ابتسامة جستن التي صاحبت ملاحظته هذه كطعنة مفاجئة في صميم هيلين. الا انها حاولت التخفيف من ألم الغيرة الحارقة وأرغمت نفسها على الابتسام، فيما كانت لوسي تقلب شفتيها وتقول لجستن هازئة:

«آه منكم ايها الرجال، فخيالكم يصل الى حدود معينة لا يتخطاها. اما بالنسبة لعطلة نهاية الاسبوع... فاني اصر ان تحضروا جميعاً لتمضية اليوم بكامله معنا. سيكون في ذلك تغيير لهيلين. وبالطبع، يجب احضار جولييت... سنجد عدة اشياء لتسليتها والترفيه عنها. اتفقنا؟».

تطلعت هيلين مشككة نحو جستن، فرفع حاجبيه قائلا:

«ولم لا؟ شكراً يا لوسي».

«حسناً. هل ستبدأ حصاد القصب في الاسبوع القادم؟».

«ابتداء من يوم الاثنين، ان شاء الله».

«هذا يعني اننا يجب ان ندعو لك لكي لا تمطر قبل انتهائك من حصاد الحقول الباقية».

ثم وجهت ابتسامة تعاطف نحو هيلين وقالت:

«سوف تكتشفين خلال ايام قليلة ما يعنيه الزواج من رجل يملك حقولا من قصب السكر. سيعود اليك كل يوم متسخا ومسوداً و...».

وهزت أنفها بطريقة جذابة قائلة:

«ومع ذلك ايتها الحبيبة، فانك لن تبالي. أليس كذلك؟».

تجاهلت هيلين هذا السؤال ووجهت بدورها عدداً من الاسئلة الى جستن حول تفاصيل الحصاد، وانتاج السكر وتكريره. واثناء ذلك وقع

نظر لوسي على العلبة الموسيقية الصغيرة، فقالت:
«أوه، ما هذه؟».
ثم تناولتها من مكانها قائلة:
«هل تسمحين؟ أنا مغرمة جداً بمثل هذه الأشياء».
وبابتسامة ذات مغزى فتحت الغطاء وأخذت تتأمل راقصة الباليه الصغيرة ثم سألت هيلين:
«انها لطيفة جداً. هل هي لك؟».
«لا، انها لجولييت».
«ولكن أنت اعطيتها لها. أنا متأكدة من ذلك».
وتطلعت لوسي بعيداً وكأنها تحاول ان تتذكر شيئا هاما. ثم قالت:
«أعرف هذا اللحن الموسيقي... ولكني نسيت عنوانه».
ثم احنت رأسها قليلا وكأنها تستمع وتركّز تفكيرها كله على هذه المقطوعة. وفجأة نظرت الى جستن وبدأت تغني كلمات الاغنية بصوت ناعم جميل. ولم يكن عنوان الأغنية سوى:
خذني الى قلبك مرة اخرى.
وتساءلت هيلين بانزعاج... هل كانت مصادفة! هل هي تتخيل او تتصور اشياء ليست موجودة، كتلك النظرة الناعسة التي وجهتها الى جستن... ام انها كانت تعني...
كان منزل عائلة سندانا يقع على قمة تلة تشرف على الخليج. ويلاحظ القادمون اليه مدى ضخامته والمساحة الشاسعة التي تحيط به، والتي تضم حوضاً للسباحة بالاضافة الى جزء كبير من الشاطىء. ويوجد ايضا مرسى لليخوت والقوارب وبيت خاص ليختهم الفخم.
وقد اظهرت جولييت على الأقل تحمساً ملحوظاً لتلك الزيارة، التي اعدت لها ثياب البحر وآلة التصوير المزودة بعدسة خاصة. وشغلها حماسها وتشوقها لتمضية ذلك اليوم بكامله خارج البيت عن ملاحظة جو التوتر الصامت الذي كان سائداً حولها. فهيلين كانت مرتبكة بعض الشيء، ووالدها كان يجيب على اسئلتها المتلاحقة بكلمة نعم او لا..
«اجمل ما في جولييت، بالنسبة للزيارات، انها ليست خجولة. اذ يمكن اخذها الى اي مكان».

قالها جستن بلهجة شبه جافة بعد ان اوقف السيارة وشاهد ابنته تقفز منها ملوحة للمضيفة الجميلة.

«اهلا وسهلا ومرحباً. ولكن ارجوك...»:

وضحكت لوسي وهي تواصل ترحيبها بجوليت قائلة:

«ارجوك، لا تستعملي كلمة العمة عندما تتحدثين معي».

ثم صافحت هيلين وجستن وقالت لهما:

«البيت سيكون تحت تصرفنا طوال النهار، اذ ان الوالدين ذهبا لصيد السمك ولن يعودا قبل المساء. بعض الاصدقاء الآخرين سيصلون في وقت لاحق».

لم يكن بالامكان انتقاد لوسي كمضيفة. فقد كان كل شيء معداً وجاهزاً وكأن الضيوف سيمضون يومهم في افخم الفنادق العالمية. ولفت نظر هيلين بشكل خاص المقعد المريح للغاية الذي وضع لها قرب بركة السباحة تحت مظلة كبيرة تقيها حر الشمس. هذا بالاضافة الى عدد من المجلات وجهاز راديو وابريق من عصير الفاكهة.

احتجت هيلين بتهذيب وخجل قائلة:

«لماذا هذا العذاب كله؟ أنا لست مقعدة!».

«طبعاً لا يا عزيزتي. ارتاحي، وافعلي ما تريدين. فالجميع هنا يتصرفون بحرية وكما يشاؤون».

«هل يمكنني النزول الى بركة السباحة يا عمتي... عفواً، يا لوسي».

ابتسمت صاحبة الدعوة وهي تتأمل الصبية الصغيرة التي كانت السباقة لارتداء ثياب السباحة، ثم قالت لها:

«بالطبع يا حبيبتي. الجزء العميق يقع في الجهة المقابلة. بالمناسبة، هل تعومين جيداً؟».

«الى حد ما».

خلعت لوسي معطف البحر الأبيض الذي كانت ترتديه فوق ثياب السباحة قائلة:

«سأنضم اليك على الفور».

ثم تطلعت بجستن وهيلين وقالت:

«ما رأيكما بالانضمام الينا!».

هزت هيلين برأسها قائلة:
«لا شكراً».
اما جستن فردّ بالقول انه لم يحضر معه ثياب البحر. رفعت لوسي حاجبيها وقالت:
«يوجد الكثير منها في غرفة الملابس. هل نسيت؟».
«ربما في وقت لاحق. اني... اشعر بشيء من الكسل».
كانت عيناه مخبأتين وراء نظارات شمسية داكنة، ولهجته عادية جداً لا تنم الا عن مجرد جواب مهذّب. الا ان هيلين شعرت بأن نظراته تلاحق الفتاة الجميلة وهي تنزل الى الماء بغنج ودلال. وهل يمكن فعلا لأي رجل ان يتجاهل هذا الجمال وهذه الجاذبية... خاصة مع هاتين القطعتين الصغيرتين اللتين ترتديهما!
حول جستن نظره فجأة الى زوجته قائلا:
«انها تحاول تعليم جولييت على ما يسمى بضربة الفراشة».
«نعم. انها صبورة جدا مع جولييت».
وفجأة ادهشها جستن بسؤال لم تكن تتوقعه:
«يبدو انه ليست لديك اي رغبة على الاطلاق في اقامة صداقة معها، أليس كذلك؟».
صمتت هيلين لحظة محاولة ايجاد الكلمات المناسبة للردّ على هذا التحدّي. ولكنها لم تتمكن، واكتفت بكلمة نعم التي قالتها بصدق وامانة. فهي فعلا غير راغبة بمثل هذه الصداقة.
«انها انسانة كريمة جداً».
«هذا صحيح».
صحيح انها مشهورة بكرمها وحسن ضيافتها. فهي محظوظة بما فيه الكفاية لأنها قادرة مادياً على البذخ والانفاق. ولكن، هل هي كريمة بأمور غير مادية! وسألها جستن بهدوء وتمهل:
«هل سبب مجافاتك لها يعود الى ما اخبرتك اياه؟».
احتفظت هيلين بنبرة ثابتة ومهذبة، وقالت له بدون تردّد:
«لا، ليس ذلك بالتحديد. ولكن ليس بامكان كل انسان ان يقيم صداقة فورية مع انسان آخر. اضف الى ذلك، ان للمرأة اسلوباً مختلفاً في

اقامة علاقات صداقة مع بنات جنسها».

لم يعلق جستن بشيء على تلك الملاحظة، ولكنه وقف فجأة وقال:

«اعتقد انني سأبدل ثيابي واسبح قليلا».

وبدون ان يلتفت الى الوراء او ينتظر تعليقها، توجه بخطى سريعة نحو غرفة الملابس وخرج منها بعد قليل لينضم الى لوسي وجوليت. اما بالنسبة لهيلين، فكانت ساعات النهار تمضي بتثاقل وكسل. وعلى الرغم من محاولاتها الجاهدة، فانها لم تتمكن من مبادلة لوسي الكلمات الودية والرقيقة التي كانت توجهها لها باستمرار. ولم تشعر بشيء من الانفراج الا عندما وصل روجر ونورين وراي وعدد آخر من الشبان والشابات، واضطرت لوسي للاختلاط بهم. وما ان غابت الشمس وحل الظلام الاستوائي بسرعة حتى اضيئت الانوار حول بركة السباحة، وانسابت موسيقى حالمة من مكبرات مخفية.

ارتدت لوسي آنذاك فستاناً من الحرير الأزرق الشفاف واخذت تتنقل بين المدعوين توزع عليهم ابتساماتها الرقيقة، وتتبادل معهم النكات والطرائف، وتسألهم عما اذا كان ينقصهم اي شيء على الاطلاق. وكان روجر درو اول من دعاها الى الرقص، فاستجابت مبتسمة وشاكرة.

وضعت نورين كرسياً قرب مقعد هيلين وقالت لها وهي تشير الى روجر:

«انظري الى هذا الشاب التعيس الذي سلبته لوسي عقله وقلبه. هل يمكنك القول ان له خطيبة تحبه وتنتظر الزواج منه؟ ولكن هذه العلاقة لن تدوم طويلا... الانتصارات التي تحققها لوسي بسهولة لا تدوم عادة اكثر من فترة قصيرة. وسيشعر هذا المسكين بوخز الضمير وبالندم، ربما عندما لا يعود الندم ينفع».

اخذت نورين سيكارة من علبة هيلين بدون ان تتكبد عناء السؤال. ثم اشعلتها وقالت:

«من المؤسف جداً ان تقعدك حادثة قدمك في مثل هذا الوقت. فزوجك المحبوب يبدو وكأنه الضحية التالية».

اجابتها هيلين بلهجة حاولت ان تظهرها مقنعة، مع انها كانت تشعر في اعماقها بعكس ذلك:

«لا يمكن ذلك. فجستن رجل راشد ولم يعد شاباً مراهقاً يقع في الشرك

بمثل هذه السهولة».

ومع ذلك بدأت تراقبه باهتمام بالغ. وشعرت بأنها ستتألم كثيراً اذا رقص معها اكثر من مرة. . . او اذا. . . وتنهدت هيلين عندما رأته يبتعد عن لوسي ويحني لها رأسه بلياقة وتهذيب، ثم يتحول الى ابنته ليأخذها بين ذراعيه ويضمها بحنان.

وفجأة سألتها نورين:

«ألست قلقة؟ أعني بالنسبة لعودتها بهذه الصورة بعد. . . لو كنت مكانك لشعرت بقلق عظيم. أنا اعرف لوسي منذ عدة سنوات. . . واشكر الله عز وجل لأنني سأتزوج اخاها، وليس رجلا آخر».

«لو ارادها، لكان تزوجها. لقد انتهى كل شيء، فلماذا اقلق؟».

عقدت نورين جبينها وقالت:

«لا اعرف. . . هناك امر ما بالنسبة لكما، انت وجستن، و. . . اوه، اني على الأرجح أتخيل اشياء لا وجود لها. في اي حال، فأنا لا اثق بها اطلاقا. ولو لم يكن راي شقيقها لعملت جاهدة للابتعاد عنها قدر الامكان».

واشعلت نورين سيكارة ثانية ثم اضافت قائلة:

«انا اعتقد ان لوسي ليست راغبة في الزواج الآن. فهي حاليا سعيدة جدا باضافة اسماء جديدة الى قائمة الضحايا الطويلة ولو كنت مكانك، لحاولت جاهدة عدم اقامة علاقة ودية معها. السماح بالاقتراب او التودد يفتح الباب امام الاخطار».

«اعتقد ان الأوان قد فات».

قالتها هيلين بمرارة شاعرة للحظة بأنها على وشك مصارحة نورين بما يجول في خاطرها، والاستعانة بخبرتها ونصائحها. ولكنها احجمت عن ذلك. . . لأن ارشادات نورين لن تنفع. ما من شيء ينفع! عليها ان تقنع بما قرره جستن. . . الى ان يقرر شيئا آخر. ولم تسمح لنفسها حتى بالتكهن بما سيكون عليه القرار الآخر. ولكن، في وقت لاحق من تلك الليلة. . . عندما كانت لا تزال مستيقظة في غرفتها، في فيللا ميموزا، تمنت هيلين من اعماق قلبها وبكل جوارحها لو ان لوسي سندانا ظلت بعيدة عن سلمندر. . . الى الأبد.

١٢- الزوجة العاشقة

صبيحة اليوم التالي بدأ جستن والعمال المرافقون له حصاد موسمه من قصب السكر لذلك العام. وصدقت بعض توقعات لوسي، من حيث انه عاد متأخراً... ومتعباً... ومتوتر الاعصاب. ولكن الأمر الذي اثار استغرابها واقلقها هو امتناعه عن تناول العشاء. وتكررت الصورة نفسها مساء الثلاثاء.

وعندما شاهدته مساء الاربعاء وعلى ذراعه جرح كبير، شعرت بانها لم تعد قادرة على اخفاء قلقها والتزام الصمت بصدد متاعبه وتوتر اعصابه. ولكنه طمأنها قائلا:

«ان الجرح ليس عميقاً على الاطلاق. والافضل ان نسميه حدثاً وليس جرحاً».

«اعلم ذلك يا جستن. ولكن اتمنى ان تدعني اضمده قليلا... وسوف نزيل الرباط غداً صباحاً».

«وهل سيسعدك ذلك؟».

ادهشتها تلك النبرة في صوته... التي لم تعكس كالعادة شعور المودة والتدليل، بل شعور الانسان المتعب الذي يريد راحته باي ثمن وبدون اية مناقشة. وعندما انتهت من تضميد الجرح، تمتم جستن بكلمة شكر واحدة بدون الالتفات اليها. ما هو سبب هذه التصرفات الجافة المتوترة يا ترى؟ اهو الحصاد ومتاعبه ومشاكله، ام انه ذلك الموضوع الذي تعيش هي مخاوفه كل لحظة منذ بعض الوقت؟

وتنهدت هيلين قائلة لنفسها ان موسم الحصاد سينتهي قريباً وينتهي معه توتر الاعصاب حول تأمين شحن الكميات المتوفرة الى معمل التكرير في

موريشيوس. والمؤسف في الامر ان انتاج سلمندر من قصب السكر لم يكن كافياً لاقامة معمل تكرير فيها.

ولم تكن هيلين وحدها ضحية المعاناة والمشاكل الناجمة عن مشاغل جستن المرهقة. فجولييت ايضاً اصبحت مضطرة خلال تلك الايام للعودة الى البيت مستخدمة سيارة الركاب الكبيرة التي تمر قرب مدرستها، عوضاً عن العودة بسيارة والدها. وفي يوم الحصاد الرابع شعرت هيلين بان التورم قد خف من قدمها، وان بامكانها السير مسافات قصيرة بدون الشعور بألم او تعب. فقررت عند الظهر ملاقاة جولييت على الطريق العام ومرافقتها حتى المنزل.

انتظرت هيلين حوالى عشرين دقيقة قبل ان تصل السيارة الزرقاء المتوسطة الحجم متأخرة نصف تلك الفترة. توقفت السيارة واتكأ السائق على مقوده بانتظار صعود الراكبة الوحيدة الموجودة هناك. وعندما لم تتحرك، هز بكتفيه مستغرباً وانطلق نحو محطته التالية. وكانت هيلين اشد استغراباً من السائق، اذ ان جولييت لم تنزل من تلك السيارة. لماذا يا ترى؟ هل انطلقت السيارة من موقفها امام المدرسة قبل انتهاء الدرس الأخير؟ هذا ليس ممكناً. فالسيدتان ميم، كما يسميها جستن، مشهورتان بدقة مواعيدهما.

عادت هيلين الى البيت وبعد لحظات تفكير وجيزة، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بالمدرسة. وجاء جواب الاستفسار ليقلقها ويثير في نفسها المخاوف والشكوك. نعم، غادرت جولييت وبقية التلاميذ المدرسة قبل عشر دقائق من موعد الباص! اعادت سماعة الهاتف الى مكانها واخذت تفكر بالخطوات التالية التي يجب ان تقوم بها. وفجأة رن جرس الهاتف...

«جولييت؟».

عرفت هيلين صاحبة الصوت قبل ان تنهي لوسي سندانا تقديم نفسها والترحيب التقليدي المتبع في بداية المكالمات الهاتفية. ولكن، لماذا لوسي في مثل هذا الوقت؟ وجاء الجواب على الفور، عندما سمعتها تقول لها برقة ونعومة:

«شعرت بان من الافضل ابلاغك بان جولييت موجودة هنا... وذلك

كيلا تقلقي».
ردت عليها هيلين بلهجة حاولت قدر المستطاع اخفاء حدتها وغضبها:
«ولكني قلقت كثيراً عندما لم تصل الى البيت في الموعد المحدد. بالمناسبة، اين انتما بالتحديد؟».
«في بيتنا طبعاً. وجولييت على وشك البدء بالتمرين على ضربة الفراشة التي كنت ادربها عليها في الاسبوع الماضي. هل تذكرين؟».
«اذكر ذلك جيداً. ولكن، هل لي ان اسأل متى تم اعداد هذه الترتيبات؟».
«اوه، هيلين! لم تكن هناك اية ترتيبات معدة سابقاً. فكل ما حدث هو انني كنت امر بسيارتي صدفة امام مدرستها، وكانت هي خارجة من الصف... كانت دعوة مرتجلة، ولكن سرّت بها جولييت كثيراً. طلبت من الخادمة ان تعد لنا قليلا من الشاي والحلوى لما بعد السباحة».
كان غضب هيلين قد بلغ آنذاك مرحلة الغليان، فقالت بحدة واضحة:
«هل خطر في بالك كيف ستعود جولييت الى البيت؟ السيارة مع جستن، والموعد المسائي لمرور سيارة الركاب قرب منزلكم يؤخرها كثيرا عن النوم».
ردت عليها لوسي بصوت منخفض يعبّر عن شيء من التهكم والسخرية عندما قالت:
«وهل تظنين انني كنت سأرسلها الى البيت مشياً على الاقدام؟ لا تخشي

فنحن، راي او انا، سنوصلها بالسيارة... وفي الوقت المناسب. هل كل شيء الآن على ما يرام؟».
«لا، ليس على ما يرام اطلاقاً. كان عليك ابلاغي في وقت سابق. على الأقل، الذوق يقضي بذلك. ثم، كيف تعرفين انني لم اقم فعلا بترتيبات اخرى لجولييت في مثل هذا الوقت؟».
اجابتها لوسي بهدوء وقد تبدّلت نبرة صوتها من التهكم الى الانزعاج:
«اوه، يا عزيزتي! انك تأخذين موضوع امومتك الجديدة بكثير من الجدية. انا متأكدة من ان جستن لا يقوم بمثل هذه الجلبة التي لا ضرورة

لها».

«انا ام جولييت الآن».

قالتها هيلين باصرار مشددة على كلمة ام. ثم تابعت حديثها بمنتهى الجدية:

«انا امها ومسؤولة عنها. هل بامكانك ان تتذكري هذا الأمر في المستقبل وتستشيريني قبل ان توجهي دعوة اخرى من دعواتك المرتجلة هذه؟».

لم ترد لوسي بشيء لبضع لحظات، ثم قالت بتهكم وعصبية:

«لقد اختار جستن بالتأكيد ضابطاً صارماً وقاسياً ليوليه امر جولييت الصغيرة المسكينة. حسناً يا عزيزتي، سنعيدها خلال فترة قصيرة. وداعاً».

وضعت هيلين سماعة الهاتف في مكانها بعنف، وقد استبد بها الغضب والقلق. كيف تسمح لوسي سندانا لنفسها بان تأخذ جولييت هكذا الى بيتها، بدون استشارة احد او ابلاغ احد؟ ولماذا قامت بما قامت به؟ انها ليست من الاشخاص الذين يجدون في مصادقة الاطفال الصغار البسطاء سعادة او لذة او اكتفاء ذاتياً! ام انها تسعى الى الفوز باعجاب الصغار بعد ان ضمنت لنفسها اعجاب الكبار؟ ولكن التودد الى الصغار والشعور نحوهم بعاطفة الامومة ليسا من خصائص لوسي. ولو لم يشعر جستن بذلك لكان...

آه! هل ان لوسي تحاول الان بطرق شيطانية وحيل خبيثة استعادة اهتمام جستن بها وعاطفته نحوها؟ باستخدامها جولييت؟ لا، لا. ان ذلك مستحيل. لوسي ليست من الأشخاص الذين يدوسون على كرامتهم وعزة نفسهم لتحقيق اهدافهم. وجستن... رجل متزوج، ولكن... هل يمنع ذلك لوسي من العمل على نيل مآربها!

ظلت هيلين مشوشة الافكار بعض الوقت. ولم تفق من شرودها الا عندما شاهدت جولييت تنزل من سيارة راي سندانا. ارغمت نفسها على وجوب التصرف بهدوء مع الفتاة، التي بدا واضحاً انها استمتعت الى حد كبير بتلك الدعوة المفاجئة. ومع ان هيلين امتنعت عن تأنيبها او التحدث معها بلهجة قاسية، لشعورها بان اللوم كله يقع على لوسي، فقد تنبهت

جولييت الى الاستياء الصامت وسارعت الى القول:

«لقد ترددت بالذهاب مع العمة لوسي بدون ابلاغك بالأمر. ولكنها قالت انه لا بأس بذلك ما دمنا ستتصل بك بمجرد وصولنا الى منزلها. هل كان تصرفاً سليماً يا هيلين؟».

«لا بأس هذه المرة يا حبيبتي. ولكن الأفضل في المرات القادمة ابلاغنا مسبقاً. فلو كان والدك في البيت، لشعر بقلق وانزعاج».

«اوه، العمة لوسي قالت ان والدي لا يمانع، فهما يعرفان بعضهما معرفة وثيقة منذ زمن طويل. ولكنها كانت تخشى ممانعتك».

«هكذا اذن».

واخذت هيلين نفساً عميقاً، ثم سألت جولييت بتمهل:

«هل تحبين العمة لوسي؟».

«كثيراً. انها لذيذة جداً... ولكنها ليست بطيبتك انت. انها سبّاحة ماهرة... وبركة السباحة رائعة».

ظلت هيلين تفكر لفترة طويلة بعد ذهاب جولييت الى النوم بافضل طريقة او اسلوب لابلاغ جستن بما حدث. كان شعورها الأولي ان تخبره القصة بحذافيرها، بما في ذلك غضبها واستياؤ ها من لوسي. ولكن مرور الوقت جعلها تهدأ قليلا. ربما كانت متسرعة في اصدار حكمها... ربما كانت لوسي فعلا تعني ما قالته من ان الصدفة والعفوية لعبتا الدور الأكبر في دعوتها لجولييت! اليس ممكناً ايضاً ان ينظر جستن الى الموضوع بمنظار آخر.. او ان يجد غضبها مسلياً، وربما مستغرباً؟ واخيراً، عندما عاد جستن الى البيت وذهبت لاعداد شراب بارد له، سمعت صوتاً باطنياً يطالبها بان تنسى القضية برمتها وان تمتنع حتى عن الاشارة اليها.

مضى ذلك الاسبوع بدون حدوث شيء يذكر. وبحلول يوم الاثنين من الاسبوع التالي، كانت هيلين قد نجحت تقريباً في محو تلك الحادثة تماماً من تفكيرها. ولكن الحادثة تكررت... ولوسي لم تزعج نفسها هذه المرة حتى بالاتصال الهاتفي. اتصلت هيلين بفيللا سندانا وانتظرت فترة بدت طويلة جداً قبل ان تسمع لوسي تقول لها:

«اوه، مرحباً. كنت على وشك الاتصال بك. نعم، انها هنا».

ردت عليها هيلين بعصبية:

«أتمنى الا تتكرر هذه القصة مرة اخرى يا لوسي».
ضحكت لوسي بسخرية وقالت:
«آه يا عزيزتي، هل يجب ان تكوني عصبية هكذا؟ جولييت تحب زيارتنا».
توقفت لحظة، ثم تابعت حديثها بسرعة قائلة:
«يجب ان اذهب الآن... انها مستعدة. ليت بامكانك مشاهدتها الآن... كم هي جميلة في ثياب البحر، وبهاتين القطعتين خاصة».
ثم اقفلت الخط. ظلت هيلين مشدوهة بعض الوقت. ان كانت لوسي تعتقد ان هذه الزيارات ستصبح منتظمة، فان الوقت قد حان لردعها عن ذلك... وبصورة نهائية. فمهما كانت اهداف لوسي ومخططاتها، فان من الظلم استغلالها جولييت. وتمنت هيلين ان تكون لوسي هي التي ستحضر جولييت الى البيت... لأنها ستكون المرة الأخيرة. ولن تضطر لوسي بعد ذلك للتظاهر بالتودد والمجاملة.
ولشدة غضبها وحنقها، لم تسمع هيلين صوت السيارة التي دخلت الباحة الخارجية. ولكنها سمعت اصوات اقدام وباباً يفتح... فركضت باتجاه الباب وهي...
انه جستن... فتوقفت، وحاولت ان تقول شيئاً... ولكنها لم تتمكن. كما انها لم تتمكن من اخفاء معالم التأثر والذهول من وجهها وعينيها.
«مرحباً... ماذا حدث؟ اهكذا يبدو عليك عندما تستقبلينني؟».
«لا، طبعاً لا. لم اشعر بوصول السيارة. جستن...».
«ليس هناك اية مشكلة جديدة مع هذه القلم على ما ارجو!».
خلع سترته، ثم توجه الى المطبخ سائلاً:
«الم تعد جولييت بعد؟».
«لا».
ثم تبعته ووقفت في الباب قائلة:
«انها في منزل لوسي سنداناه».
«عند لوسي؟».
وجمدت يده الممسكة بقبضة البراد، ثم استدار نحوها قائلاً:

«وماذا تفعل هناك؟».
«تسبح».
ثم اخذت نفساً عميقاً وقررت ابلاغه كل شيء.
«هذه هي المرة الثانية يا جستن. ولكن لوسي لا تخبرني. تذهب الى المدرسة وتأخذ جوليت من هناك، ثم تتصل...».
استمع جستن الى كافة التفاصيل بدون ان يتفوه بكلمة واحدة. وترددت هيلين قليلا بعد لحظات من الصمت، ثم قالت له:
«دعوة جوليت الى هناك لا تضايقني! ما يضايقني لا بل ويزعجني كثيراً هو الاسلوب الذي تتم فيه الدعوة والزيارة. واعتقد ان اسلوب لوسي... ليس صحيحاً».
تمهل جستن في اعطائه الجواب، ولكنه قال:
«لا، ليس صحيحاً. انا اوافقك الرأي.. لم يكن تصرفاً حكيماً».
«اعتقد انه تصرف وقح».
رفع جستن حاجبيه ووضع كأس الشراب الفارغة في المكان المخصص لها، وقال:
«انت فعلا متضايقة كثيراً. خففي من غضبك قليلا. هل تريدين شراباً بارداً؟».
«لا شكراً».
تضايقت هيلين لأنه بدا وكأنه لم يهتم كثيراً بما حدث. وسألته بشيء من الانفعال:
«ألا تعترض على هذه التصرفات؟».
وجّه اليها نظرة حادة ثم اتكأ على البراد وقال:
«نعم، ان كانت هذه التصرفات تغيظك. ولكني لا اعتقد ان لوسي تقصد الاهانة او المضايقة. انها عفوية التصرف، وهي فعلا ذات قلب محب وكريم. على الاقل فان هذه هي نظرتي اليها دائماً».
طبعاً، طبعاً. هكذا يفكر فيها. يا لسخرية الأقدار! وقبل ان تتمكن من الاجابة، سمعته يتابع حديثه قائلا:
«فلماذا لا تنظرين الى الموضوع من جانبه الايجابي؟ اذا احبت ان تدعو جوليت بين الفترة والأخرى، فلتفعل. ان من شأن ذلك ان يريحك بعض

الشيء لتصح قدمك تماماً».
ردّت عليه بعناد ظاهر:
«لا اريد مثل هذه الراحة. واريد ان اعرف اين هي جولييت عندما لا تكون في البيت».
تنهّد جستن قائلاً:
«حسناً، ان الامر في غاية السهولة. انت الان ام جولييت... استخدمي سلطة الام واطلبي من جولييت عدم قبول اية دعوات من اي انسان قبل حصولها على موافقة مسبقة منك».
ثم ابتسم قليلا وسألها:
«هل تريدين مني ان اتحدث الى جولييت بهذا الشأن؟».
«لا. لقد حدثت جولييت... ولوسي، خلال المرة الاولى. هذه المرة سأكون واضحة تماماً».
عبس جستن ثم قال:
«ربما كان من الافضل ان ابحث الموضوع مع لوسي بطريقة لبقة. اعتقد انها ستتفهم القضية ببساطة وسهولة».
وجّهت اليه هيلين نظرة مماثلة وقالت له بثبات واصرار:
«لا، فانا سافعل ذلك. لقد اردت ان... ابحث المسألة معك قبل ان...».
«قبل ان تشهري الحرب بسبب مبدأ معين؟».
«نعم».
قطب حاجبيه قليلا ثم سألها بلهجة غلب عليها الحنان:
«هل راودتك اية شكوك حول امكانية وقوفي في الصف المعارض لك؟».
لم تتمكن من الاعتراف له بان هذا الاحتمال ورد في رأسها اكثر من مرة. وعندما احنت رأسها ولم تجب، قال لها بهدوء:
«اسمعي يا عزيزتي. انا اعرف انك تحبين جولييت كثيراً وتعملين مخلصة على تأمين سعادتها ورفاهيتها. وهذا كل ما يهمني. تأكدي انني لن اجادلك او اعارضك ابداً في اي قرار تتخذينه بالنسبة لجولييت، بغض النظر عن الشخص او الاشخاص الذين يزعجهم قرارك».

ثم ربت على كتفها وقال لها بحنان ظاهر:

«الان، وبعد ان سويت الأمور على النحو المطلوب، لنذهب وننتظر تلك الفتاة التائهة».

شعرت هيلين وهي تسير قربه باتجاه القاعة الرئيسية بانها حققت انتصاراً جزئياً. بعد انصفها جستن في الدور الذي تقوم به في حياة جولييت. ولكن متى ينصفها في الدور الذي تصبو اليه بكل جوارحها... دورها كزوجة عاشقة؟

بعد ساعة تقريباً، وصلت جولييت يرافقها هذه المرة روجر درو. ما هي الطريقة المثلى لمفاتحة جولييت بالموضوع بدون ان تبدو قاسية او متسلطة؟ اليس من الممكن ان تكون لوسي قد اطلقت عليها هاتين الصفتين، عندما كانت تنذر جولييت بان حفلات السباحة قد تتوقف بسبب اعتراض زوجة ابيها؟ وقبل ان تفتح فمها لتقول شيئاً، سمعت جستن يتحدث الى ابنته باعصاب باردة قائلا:

«لقد تأخرت يا جولييت. لا، لا تزعجي نفسك بالشرح والتوضيح. تذكري فقط ان تطلبي اذناً قبل الذهاب لزيارة اي كان على الاطلاق».

استدار جستن نحو روجر وسأله عما اذا كان يرغب بكأس من الشراب البارد. اما جولييت فقد ظلت واقفة بدون حراك لبعض الوقت قبل ان تقول لهيلين بتردد:

«انا آسفة يا هيلين. لقد نسيت ما قلته لي، وكان الطقس حاراً جداً...».

لم تتمكن هيلين من البقاء متوترة الاعصاب ومشنجة، فسارعت الى مقاطعة جولييت قائلة:

«اعرف. ولكني اعتقد انك تفهمين الوضع الآن. كان على لوسي الا تشجعك على عدم اطاعة الاهل. انها انسانة راشدة، وكان عليها ان تفكر بطريقة افضل».

«اعطتني درساً قصيراً... حوالى ثلث ساعة فقط. ثم حضر العم روجر، وتحدثت معه قليلا ثم...».

توقفت جولييت عن اتمام جملتها وسألت:

«ما هذا؟».

«لا اعرف».

شعرت هيلين في اللحظة نفسها التي توقفت فيها جولييت عن الكلام... بهزة في جميع انحاء الفيللا، وكأن قطاراً مر في نفق تحت الأرض على مقربة منهم. ولكن... ليس في الجزيرة اية قطارات او انفاق. ثم تطلعت بجولييت قائلة:

«سأطلب من أبي ان تعد لي شيئاً ما. اذهبي الان وضعي كتبك في مكانها. ربما قررنا بعد قليل الذهاب الى الشاطىء».

استعادت جولييت ابتسامتها وركضت باتجاه غرفتها. اما هيلين فظلت واقفة على الشرفة... تفكر بجستن ولوسي. كيف يمكنها القضاء على ذلك الخطر الذي تشعر متأكدة بان لوسي تشكله على...

«هيلين، بدأ شرابك يسخن».

دخلت الغرفة لأن الحرارة في الخارج لا تسمح للانسان بالوقوف طويلا. وفجأة، شعرت بتلك الهزة الغريبة مرة اخرى. كذلك شعر بها جستن وروجر اللذان توقفا عن الحديث بضع لحظات قبل ان يسأل روجر:

«هل هذا زلزال؟».

وقف جستن بعصبية، وقال هو يتجه نحو هيلين:

«لا اعرف. ولكنه اذا حدث، فسيكون اول زلزال في تاريخ الجزيرة المعروف».

تسارعت ضربات قلب هيلين وقالت لهما:

«كانت هذه الهزة الثانية. فقد حدثت هزة اخرى عندما كنت اتحدث مع جولييت قبل بضع دقائق».

صمت الجميع لحظة وظلوا واقفين بدون حراك، وكأنهم ينتظرون. ثم صرخت هيلين:

«سأذهب لاحضار جولييت».

في تلك اللحظة بالذات كانت الصبية الصغيرة تنادي من الخارج بصوت عالٍ وخائف. ركض الثلاثة كشخص واحد الى النافذة. كانت جولييت تقف في زاوية الشرفة خارج غرفتها مباشرة وهي تحدق بعيداً... باتجاه اعلى جبل في الجزيرة.

«انظروا! انه العين! ان الدخان يتصاعد منه! ان البركان... لم يعد

ساكناً».

كان جستن سباقاً في التخلص من آثار الصدمة، فهرع الى الهاتف، فيما ظل روجر وهيلين يحدقان خائفين بتلك السحابة السوداء التي تتصاعد بكثافة فوق فوهة البركان، المسمى بالعين.

«هل سينفث حممه؟».

سألت جولييت ذلك بصوت هامس يسيطر عليه الفزع والهلع. فاجابها روجر وقد ظهر الذعر في عينيه:

«لا اعرف، لا اعرف. احياناً يظل الدخان يتصاعد من فوهته عدة ايام قبل ان يقذف المواد الملتهبة. واحياناً... اوه، انا لا احب هذه الهزات الارضية على الاطلاق».

«اين ابي؟».

وركضت جولييت فتبعتها هيلين وروجر بطريقة لا شعورية. ولدى دخولهم القاعة كان جستن يضع سماعة الهاتف.

«تحدثت مع المفوض العام فأبلغني انه اعلن حالة الطوارئ في الجزيرة. سوف نعمل على اجلاء جميع السكان عن اندانو، واشكر الله على ان السفينتين المخصصتين لنقل قصب السكر لا تزالان في المرفأ. سنضع على متنها معظم النساء والاطفال. اما الباقون فسوف نخرجهم بطريق البر. هيا يا روجر، فليس هناك وقت نضيعه».

كانت هيلين واقفة كتمثال لا حياة فيه، فالرعب جمّدها في مكانها. الا انها عندما سمعت جستن يقول تلك الجملة لروجر ثم يرمي سترته على كتفه ويهم بالخروج، افاقت من دهشتها وصرخت:

«جستن، لن تذهب الى اندانو... قرب البركان مباشرة! لا. لا يمكن انه جنون، ارجوك!».

شدّ بيديه على يديها المرتجفتين قائلا:

«يجب ان اذهب... هناك اكثر من ثلاثمئة شخص في اندانو، ومعظمهم هم عمالي وعائلاتهم. يجب مساعدتهم. لقد بدأوا فعلا باعداد اماكن اقامة طارئة».

ثم صمت قليلا وقال لها بلهجة مشجعة:

«يجب ان اذهب. ان ثورة البركان قد لا تحدث. ولكن لا يمكننا

المجازفة».

«اذن، خذني معك... ارجوك. دعني اذهب معك. دعني اساعد».

«لا يا هيلين، اريدك ان تظلي هنا. ان لم يقع زلزال يضرب جميع انحاء الجزيرة، فانك هنا في مأمن تام نسبياً».

«انا لا اريد ان اكون في مأمن!».

صرخت هيلين بتلك الجملة الرافضة وقد امتقع لونها وكادت ان تصاب بانهيار عصبي. لم يعد يهمها شيء في الدنيا اكثر من وجودها قربه. وكررت جملتها بأسى:

«لا اريد ان اكون في مأمن... ما لم تكن انت كذلك».

تطلع روجر بعيداً ثم سار نحو الباب، مفسحاً المجال للزوجين لكي يتبادلا كلمات خاصة بهما وحدهما. اما جستن فقد ضم زوجته بحنان قائلا لها:

«اسمعي الأن يا صغيرتي. انا لست ذاهباً الى حتفي. انا، بكل بساطة، ذاهب لكي احاول تأمين سلامة الآخرين».

«ولكن اذا بدأ البركان يقذف حممه ومواده الملتهبة عندما تكون... تكون قرب...».

واختنق صوتها وتعلقت به بقوة. فما كان منه الا ان اجابها بهدوء وثقة:

«هذا يعود الى الله عز وجل. والآن، عديني بأنك ستبقين هنا وتهتمين بجولييت، لا تذهبي الى المرفأ. سأعود بمجرد انتهائي مما علي القيام به. اتفقنا؟».

«اتفقنا».

قالتها بصوت هامس ومرتجف. وللمرة الاولى قبّلها بمحبة ثم عانق ابنته وضمها اليه بقوة وحنان... وودعها مبتسماً ومشجعاً. احتضنت هيلين الفتاة المذهولة واخذت تتأمل ذلك الافق البعيد بذهول مماثل. هل ستدمر هذه الحقول الجميلة والبساتين الرائعة قوة غاضبة، لا يعرف الانسان قوتها او يمكنه التكهن بمداها؟ وهل هذا هو انعكاس لضوء الشمس الغاربة على تلك القمة المظلمة، ام انه ألسنة اللهب التي بدأت تتصاعد من النار المتأججة في الداخل؟

١٣- خذني مرّتين

عند المغيب، ثار البركان وبدأ يقذف حممه الملتهبة. وكان بامكان هيلين وجوليت وألي مشاهدة الانفجار الكبير على الرغم من المسافة الشاسعة التي تفصل بين البركان ومنزلهن. وكانت المواد السائلة والحارقة التي يقذفها من فوهته كألعاب نارية عملاقة، تعلو كشلال من النار ثم تهطل كمطر اسود مدمّر. واخذت هيلين تصلي بصمت مرددة باستمرار اسم الرجل الذي تحب.

خلال اقل من ساعة على مغادرة جستن منزله مع روجز، كانت القافلة الحزينة قد بدأت مسيرتها نحو السلامة. وقد استخدم المشرفون على عملية الاجلاء كل ما توفر لديهم من سيارات وشاحنات ومركبات، وحتى الدراجات، لنقل الرجال والنساء والأطفال. وكان العمّال وأفراد عائلاتهم الخائفون يتعلقون ببعض الاشياء القليلة التي تمكنوا من اخراجها من بيوتهم... تلك البيوت التي حكم عليها، وعلى ما تبقى فيها، بالدمار.

اخذت هيلين تراقب وصول القافلة بحزن وأسى، تتجاذبها مشاعر متناقضة... اطاعت تعليمات زوجها لها بعدم مغادرة البيت، ورغبتها القوية في الذهاب الى المرفأ للمساعدة. السلطات المحلية ستفتح المدارس ودور العبادة وقاعة الاجتماعات الكبرى. ولكن هؤلاء الناس سيحتاجون الكثير من المأكولات والملابس والأغطية و...

رفعت سماعة الهاتف وطلبت عيادة الدكتور بيارن. الخط مشغول... من المؤكد ان اشخاصاً كثيرين يحاولون الاتصال للاستفسار. واخيراً، ردّت عليها مساعدة الطبيب، الآنسة جين كينكايد وهي فتاة اسكتلندية مرحة. أكدت لها بصوت هادىء مطمئن ان كل شيء على ما يرام، وأنها كانت فعلا اعجوبة ان يتمّ اجلاء جميع المواطنين عن منطقة البركان قبل

دقائق من هيجانه. ونصحتها الآنسة كينكايد بعدم الذهاب الى منطقة المرفأ لأنها تعج بالمتطوعين... ولكن يمكنها ان ترسل الى العيادة ما تريد تقديمه من أغطية وبطانيات وما شابه. فوعدتها هيلين بذلك.

اعادت سماعة الهاتف وطلبت من جولييت الذهاب الى الطريق العام وايقاف اول سيارة او آلية تمر من هناك. وبمساعدة ألي، جمعت هيلين كمية كبيرة من الأغراض التي تدعو اليها الحاجة في مثل هذه الظروف... وجلست تنتظر عودة جستن.

كان من المستحيل تلك الليلة اقناع جولييت بالذهاب الى النوم في الموعد المعتاد. كما انها لم تستطع مقاومة تلك الرغبة الغريبة للخروج الى الشرفة ومراقبة ألسنة النار وأعمدة الدخان التي ينفثها البركان. كان الصمت قد خيّم على الجزيرة... ولم تعد هيلين تسمع سوى دقات قلبها.

شعرت هيلين برعشة قوية، فدخلت تتبعها ألي وجولييت، وأنزلت جميع الستائر لتحجب المنظر المرعب. لماذا لم يعد جستن حتى الآن؟ ذكرت الممرضة جين ان الاصابات كانت طفيفة للغاية، نظراً للسرعة والدقة اللتين اتّبعتا في عملية الاجلاء. حدثت حروقات بسيطة عندما وقعت بعض الأحجار الصغيرة الحارقة على الشاحنة الأخيرة. كما انقلبت شاحنة اخرى في منتصف الطريق بين اندانو والمرفأ بسبب جهل السائق. كما كان من المبكر جداً آنذاك معرفة عدد المفقودين او تحديد هوياتهم.

أين هو جستن الآن؟ هل شاهده احد يغادر اندانو؟ هل هو... وتوالت الاسئلة المزعجة. ولكنها قررت فجأة طرد الأفكار السوداء من رأسها، وركزت اهتمامها على اقناع جولييت بالنوم. ونجحت بعد جهد كبير في حملها على ابدال ثيابها والتمدد في سريرها، الا انها امضت معها فترة طويلة، لأن الفتاة الصغيرة رفضت البقاء بمفردها وكانت تطالب باكية بتأكيدات لم تتمكن هيلين من تقديمها. وألي ايضا كانت قلقة على السيد جستن وعلى طوم الذي ذهب معه للمساعدة.

امضت هيلين الساعتين التاليتين متفقدة جولييت بين الحين والآخر... كانت تقفز نحو النافذة كلما سمعت صوتاً او حركة... ثم تعود الى غرفة الجلوس وترشف قليلا من الشاي. وبحلول منتصف الليل اصبحت اعصاب هيلين على وشك الانهيار. ماذا ستفعل؟ بمن ستتصل؟

الهاتف لا يعمل! والسيارة غير موجودة! آه، ماريز! جستن لا يمانع ان هي ذهبت لرؤية ماريز والاستفسار منها عما جرى ويجري. ولكن... ماريز لم تعد قريبة، فقد انتقلت الى مكان يبعد حوالى خمسة كيلومترات عن المرفأ... وعرضت الفيللا اوريليا للبيع. ماريز لن تنفعها! ما من احد يقدر ان ينفعها! فقط عودة جستن سالماً تنفعها.

بزغ الفجر وكانت هيلين لا تزال مستيقظة تنتقل من مكان الى آخر داخل الفيللا وعلى الشرفة. آلي رجتها، بل توسلت اليها، كي تأخذ قسطاً من الراحة. ولكنها لم تتمكن من الجلوس في مكان واحد اكثر من بضع دقائق. آلي المسكينة نامت وهي جالسة على كرسي هزاز.

تفقدت جولييت فوجدتها غارقة في نوم عميق. ذهبت الى الحمام، غسلت وجهها وارتدت فستاناً نظيفاً وذهبت الى المطبخ لاعداد الشاي. عادت بعد قليل ومعها الشاي وقطعتان من الحلوى. استيقظت آلي وبدأت تحتج... الا ان هيلين اسكتتها بابتسامة صغيرة وهي تناولها فنجان الشاي.

بعد انتهاء آلي من شرب الشاي وقفت قائلة:

«لقد انتهى وقت القعود. سأبدأ على الفور بتنظيف البيت. وأنت يا حبيبتي، لماذا لا تحاولين النوم قليلا؟ لن تفيدي نفسك ان اصابك ارهاق جسدي! سأهتم أنا بالآنسة جولييت وبأعمال البيت... وسأخبرك فور وصول الرجال. ربما ناموا في مكان ما... وسيصلون بعد قليل وهم جائعون كالذئاب المفترسة».

«لا اقدر يا آلي... لا أقدر على الراحة او النوم قبل ان اعرف. اوه، يا آلي، ألست خائفة؟ ألست خائفة من انهم...؟».

غمضت عينيها وشدت بقوة على صدغيها، ثم قالت:

«لا يمكنني تحمّل المزيد. ان هذا الصمت المطبق يزعجني... يضايقني كثيراً. فكأنه لم يبق شيء سوى... سوى...».

ضمتها آلي الى صدرها بحنان قائلة:

«تمالكي نفسك يا حبيبتي، وليكن ايمانك بالله العلي القدير قوياً وراسخاً. سيعودون جميعهم سالمين بإذن الله. السيد جستن ذكي جداً وطموح قوي ومعتاد على الحياة القاسية. سيعود لكل منا رجلها. لا تخافي».

هرعت عرجاً الى المطبخ مرة اخرى فغسلت وجهها ثم غادرت المنزل.

وما ان وصلت الى منتصف المدخل الخارجي للفيللا حتى سمعت صوت سيارة... ولكنها زرقاء! ليست بيضاء... ليست سيارته...

خرج روجز درو من السيارة وركض نحوها. اما طوم، الذي حياها بتهذيب قبل ان يذهب الى الفيللا، فقد بدا مرهقاً وغامضاً.

«أين هو؟ أين جستن؟ أليس...؟».

ثم صرخت بصوت عال:

«اخبرني بربّك يا روجر، اخبرني!».

تطلّع فيها روجر مذهولا واجابها متلعثماً:

«ولكن... أليس جستن هنا؟ ألم... يأت بعد؟ كنت اعتقد... انه...».

«هل تعني انك لا تعرف اي هو؟ يجب ان تعرف... يجب! انت كنت...».

هزّ برأسه قائلا:

«لقد جئت بالسفينة التي وصلت قبل ساعتين. المرفأ هادىء الآن... وأنا...».

ثم وضع يدين ثابتتين على كتفي هيلين وقال مشجعاً:

«لا تبكي ارجوك! أنا متأكد من ان الجميع بخير. المشكلة ان خطوط الهاتف تعطلت، و...».

وبكت هيلين بحرقة وصرخت:

«اين جستن! اين هو يا روجر؟».

«لا اعرف. ولكن سآخذك الى المرفأ، علّنا نجده. من المؤكد انه لا يزال هناك».

أشار الى سائق السيارة الزرقاء ليقترب منهما ثم قال وهو يفتح الباب:

«كانت ليلة مرعبة مرهقة جداً، واتوقع...».

توقف عن دخول السيارة، ثم انتصبت قامته وشعت عيناه ببريق الفرح والامتنان، وصرخ:

«ها هو! انه جستن!».

ودخلت سيارة السباق البيضاء بسرعة كبيرة وتوقفت على بعد سنتيمترات من سيارة روجر. كان جستن يجلس في المقعد الأمامي... ووراء المقود كانت لوسي سندانا تجلس مرتاحة وأنيقة... ومبتسمة! همست شيئا بأذن جستن الذي ردّ عليها متمتماً ووضع يده على يدها التي كانت لا تزال ممسكة بالمقود. حبست هيلين انفاسها... فقد بدت تلك

الحركة وكأنها تعكس مزيجاً من التعب والحنان والأسى.
تطلعت اليها لوسي ولوّحت بيدها مازحة، وقالت بصوت عال وبابتسامة ساخرة:
«ها قد احضرته لك سليماً معافى. ولكن يجب ان احذرك ايتها العزيزة، لقد كانت ليلة... قاسية... وهو متعب جداً».
ظلت هيلين صامتة بضع لحظات لا تقدر على الجواب. فرحها بعودته سالماً بعد تلك الساعات الرهيبة والطويلة كان اقوى من غضبها. ثم... فهمت كل شيء. كلمات لوسي... وجودها في تلك الساعة المبكرة... نظرات جستن اليها! وحدقت به طويلا... ثم انهارت سيطرتها الهشة على اعصابها. منظر ذلك الوجه الجميل الباسم، وتلك الابتسامة الهازئة، وهذه الكلمات الساخرة، اجتمعت كلها بقسوة لتعيد اليها غضبها.. وحقدها. لماذا هي الآن مع جستن... وفي مثل هذا الوقت بالذات؟ لماذا؟
نسيت هيلين المنطق والتفكير السليم، وتحوّل غضبها الى جستن. لماذا؟ كيف يمكنه ان يتصرف معها على هذا الشكل؟ كان يتقدم نحوها آنذاك. مدّت ذراعيها الى الأمام صارخة به، وهي تتراجع خطوة الى الوراء: «لا! لا!».
لم تسمع كلمات جستن، ولم تتنبه لمظاهر الاستغراب التي علت وجهه. حتى قدمها، لم تشعر بألمها الذي بدأ يظهر بعد ساعات من الوقوف والسير عليها. استدارت فجأة وركضت تريد الهرب! ولكن الى أين! لم تعد تعرف! الى اي مكان تحملها قدماها المتعبتان. خدشت ذراعيها العاريتين اغصان الشجر، ولم تشعر بالأوجاع والخدوش. كل ما تعرفه آنذاك ان كل شيء قد انتهى... لم تعد تتحمل... لم تعد قادرة على مقارعة لوسي ومحاربتها! وصلت الى الشاطىء... وغطت المياه قدميها.
لم تعرف من جستن الا اللطف والتهذيب... ولكنه لن يعطيها اكثر من ذلك! ألم يوضح لها ذلك منذ البداية؟ كل ما حدث في تلك الليلة اللعينة لم يؤد الا الى ذهابه الى لوسي... حبه القديم. كل شيء يؤدي به الى لوسي! وهي الآن مسألة وقت قبل ان...
«هيلين! هيلين!».
شاهدت خياله على الرمال قربها، فصرخت:

«اليك عني! اذهب».
«لن اذهب قبل ان توضحي سبب هذا التصرف».
«لن اوضح اي شيء. اتركني وحدي!».
ثم ارتفع صوتها بشكل عصبي:
«وهل هناك شيء لايضاحه؟ لماذا لا تعود اليها؟ لقد فهمت كل شيء. الم توضح لي بكل بساطة...».
شدّ على كتفيها... ولكنها افلتت منه بعنف صارخة:
«لا تلمسني!».
«هيلين!».
ركض وراءها قائلا:
«اسمعي. اصغي لحظة واحدة! هل ستشعرين بسعادة بالغة عندما تصاب قدمك مرة اخرى، وربما باشكالات اصعب واخطر؟».
امسكها من كتفيها وأدار وجهها نحوه بقوة، وبشكل لا يسمح لها بالافلات منه مجدداً. ثم قال:
«نعم ان المسألة يمكن فهمها ببساطة تامة، أليس كذلك؟ اوه، انا اعرف حق المعرفة ماذا يدور في هذا الرأس الصغير المعذب. ولو لم اكن ذلك الانسان الأرعن، لكنت شعرت بما يجري منذ وقت طويل. ولكن ما اصرّ على معرفته الآن هو سبب ادانتك لي بدون وجود اثبات جدي وحيد على ما تتصورينه منذ عودة لوسي سندانا! هذا صحيح، أليس كذلك؟».
وازدادت حدة انفعاله وتابع كلماته:
«انت تعتقدين انني امضيت الليلة، او ما تبقى منها، مع لوسي. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟».
«قل لي انت، أليس ذلك صحيحاً؟».
«نعم. ولكن ليس كما تعتقدين على الاطلاق. ولا أجد الا سبباً واحداً لذلك، وهو الغيرة! اعترفي بذلك! انها الغيرة القاتلة! ليس هناك اي سبب آخر سوى الغيرة القاتلة».
حاولت هيلين ان تنفي تلك الصفة بشدة:
«لا، ليست الغيرة! أنا لا أغار منها! أنا.. أنا اتمنى لو انني... اوه، اتركني وحدي! انك تؤذيني! أنا.. أنا اكرهك! أنت... أنت...».

واختنقت الكلمات في حلقها، فأجابها بهدوء:
«لا يا هيلين، لا يمكنك ذلك. اوه، ايتها المجنونة الصغيرة... كم قوية عزة النفس هذه! لا يمكنك ان تكرهيني، ولكن... هل يمكن انك بدأت... تحبينني؟».
انزل يديه عن كتفيها وتراجعت هي خطوة غير ثابتة الى الوراء خائفة من التطلع بعينيه الحائرتين. ولكنها هذه المرة لم تحاول الهروب... او حتى الابتعاد عنه.
«هل هذا معقول؟ ألا يمكنك الاعتراف بحبي ان كان ذلك صحيحاً؟ هل تخجلين من حبك لي؟».
ضعفت فجأة وألقت بنفسها بين ذراعيه الممدودتين. ثم احنت رأسها وهمست قائلة:
«هل احبك؟ أنا اعيش لأجلك... ولهذا السبب لم اعد قادرة على التحمّل، لم اعد احتمل! انه ليس زواجاً، هذا الذي بيننا! انه لم يكن ابداً... زواجاً!».
«ولكن يمكنه ان يصبح زواجاً حقيقاً... وسيصبح. اوه يا حبيبتي! كنت اعمى... كنت سخيفاً...».
توقف لحظة... ومن وراء دموعها شاهدت الغضب والمرارة والانزعاج تختفي من ملامح وجهه لتحل محلها نظرات الحب والحنان. ثم سمعته يقول:
«مرات عديدة كنت اتساءل... وآمل... وأقول لنفسي انني اتخيّل انك تحبينني، لأنني اريد حبك وأمني النفس به. لم تبدر منك اية اشارة... حتى مساء امس، عندما... وبعد ذلك، اوه اللعنة على لوسي سنداناً!».
ضمها الى صدره بقوة وحنان، ومضى الى القول شارحاً لها ما حدث معه في الليلة السابقة:
«توقفت بي السيارة في باروونا لأنني نسيت ان جميع السيارات تحتاج الى وقود. لم اجد احداً في المرفأ ليقلني الى البيت. ثم... اوه، ما لنا وللكلام الآن!».
ضمها مرة ثانية وسألها هامساً:
«هل صحيح ما سمعته قبل قليل؟ هل حقاً تحبين رجلا يدعى جستن فللونت؟».
«ألا تعرف؟».
كانت خائفة حتى من الهمس، خشية ان يزعج صوتها حنان تلك

اللحظة وروعتها.

«جستن... هل أنا في حقيقة ام خيال؟ هل أنت الآن فعلا لي؟».

«كما انت لي. نعم يا هيلين... أنا احبك كثيراً».

ثم ابتسم وسألها:

«هل تشعرين بعد بالغيرة من لوسي المسكينة؟».

هزت برأسها وهي لا تزال مغمضة العينين.

«لم يكن هناك اي سبب لذ صدقيني يا حبيبتي! لقد انتهى كل شيء بيننا منذ زمن طويل. نع لقد نمت في حديقتها الساعة الرابعة صباحاً... على ذلك المقعد الموجود قرب بركة السباحة».

ثم تنهّد بارتياح وتابع شرحه لما حدث:

«عندما انتهت عملية الاجلاء والانقاذ، لم اكن افكّر الا بشيء واحد هو العودة اليك. وكنت مستعداً لأن احضر بأية وسيلة نقل متوفرة. وصادف وجود لوسي آنذاك، فقبلت دعوتها شاكراً. لم أكن راغباً في الذهاب الى بيتها والاستحمام هناك، معَ انني كنت في حالة يرثى لها وبحاجة الى حمام ساخن. كذلك لم أرد الشراب الذي اصرت عليّ لتناوله. ولكن التهذيب الاجتماعي فقط حملني رغماً عني على القبول».

كانت هيلين تستمع اليه وهي سابحة في بحر من السعادة والامتنان. اخيراً، تحققت امنيتها وما كانت تصبو اليه منذ بضع سنوات.

«توقفت بي السيارة في باروونا لنفاد الوقود. وكانت تعج بالنساء والأطفال الذين احضرتهم من اندانو. كان جل همي في تلك الليلة نقل اكبر عدد من الأشخاص بعيداً عن منطقة البركان وتأمين المأوى لهم. سرنا حتى المرفأ، ثم اخذت احدى الناقلات العسكرية وعدت لاحضار اشخاص آخرين كانوا قد قطعوا نصف المسافة سيراً على الأقدام. في تلك الفترة كانت لوسي في قاعة الاجتماعات تعمل مع بقية المتطوعين على تأمين ما يلزم لايواء العمال وعائلاتهم. عرضت ايصالي الى البيت، فقبلت شاكراً. ولكنها، كبقية النساء، ارادت ان تستحم وتبدّل ثيابها. وسألتني ان كنت امانع بانتظارها نصف ساعة، فلم اتمكن من الرفض. لم اعلم ان نصف الساعة معها سيطول هكذا. وشعرت بالنعاس يتملكني... ولم انتبه لنفسي الا عندما لسعتني حرارة الشمس. وكانت لوسي قد قررت بدون

استشارتي ان تدعني أنام قليلا . . . وهذه هي القصة الكاملة بدون زيادة او نقصان».

لم تعلق هيلين بشيء ولكن عينيها اللتين كانتا تشعان ببريق الحب عكستا ارتياحها البالغ واقتناعها الكامل. فما كان منه الا ان اشعل سيكارة وسألها بحب:

«لماذا لم تخبريني قبل عدة اسابيع؟ لماذا لم تصدر عنك ادنى اشارة الى ما تشعرين به نحوي؟».

أغمضت عينيها وازاحت وجهها بعيداً عنه ثم اجابت:

«وكيف كان بامكاني ان اقدم على شيء كهذا؟ ألم نتفق على ان زواجنا سيكون صورياً وشكلياً؟».

«أوه، اعلم ذلك. ولكن هل كنت تظنين انه كان من السهل عليّ أنا مفاتحتك بمسألة اكثر الحاجات الطبيعية للزواج؟».

«أنا لم. . . لم اردك فقط لأجل. . . لأجل تلك الحاجة. اردت حبك. . . كل حبك، وليس. . . .».

تنهد بعمق وهو يقاطعها قائلا:

«آه من ذلك التحفظ المتعجرف! لقد احببتك بكل جوارحي منذ تلك الليلة التي طلبتك فيها للزواج».

دهشت هيلين وارتفع حاجباها تعجباً واستفساراً. ثم قالت:

«هل تعني انك كنت. . .؟».

اجابها بابتسامة تعلوها مسحة من الحزن:

«نعم. لقد احببتك منذ ذلك الوقت. ولكنك لم تحبيني في تلك الفترة. . . هذا على الأقل ما اعتقده. وأشك كثيراً في ما اذا كنت ستقبلين بي آنذاك زوجاً وحبيباً. أليس هذا صحيحاً؟».

«لا ادري. لقد بدأت احبك قبل زواجنا. ولكن اثناء الزواج، كان الوقت قد فات. . . اذ اننا عقدنا اتفاقاً كاحدى الصفقات التجارية. وبعد ذلك لم اتمكن من. . . .».

«تلك الاتفاقية اللعينة والمشؤومة! آه، كم من مرة لعنتها وشتمتها في يقظتي في احلامي! اتذكرين دورين؟ الليلة الاولى في شهر العسل؟ لقد ضايقتني كثيراً هدية جولييت لك. . . مع انني احببتك اكثر لأنك وفيت

يوعدك لها. ضايقتني... لأنه كانت لديّ خططي الخاصة بي للفوز بحبك وبقلبك. اعتقدت انني عندما اهديك ذلك العقد... وأضعه بنفسي حول عنقك... انك ربما لاقيتني في منتصف الطريق! اعني...».

ثم تنهّد بقوة متأسفاً وتابع حديثه المتردد والمتلعثم قائلا:

«اعني ان اموراً كانت ستحدث. خطوة منك... وأخرى مني. كنت آمل في ان تسير الامور سيراً حسناً منذ البداية، وان يجد كل منّا في الآخر الشريك الحقيقي لحياته. ولكن...».

وهزّ رأسه بأسى ثم قال:

«ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن. لا بل بالعكس... فقد اتسعت الهوة بيننا حتى وصلت الى هذا الحد».

ظلت هيلين صامتة تتأسف على اسابيع السعادة التي كان من الممكن عدم اضاعتها. ورأته يتطلع الى ساعته ثم سمعته يقول:

«اعتقد اننا مضطرون للعودة الى المنزل... والا فان حملة تفتيش مؤلفة من جوليت وحدها، او مع ألي على الأكثر، ستكون هنا بين لحظة وأخرى».

ثم ابتسم وقال لها بحنان ظاهر:

«يعجبني شعرك هكذا، متدلياً ومسترخياً على كتفيك بحرية وبدون قيود. هل ستتركينه على هذا الشكل بين الحين والآخر؟».

«طبعاً، ما دام انه يعجبك».

صمت جستن قليلا، ثم قال لها بلهجة تجمع بين الجد والهزل:

«لأنك متعبة ومرهقة ويجب ان تذهبي فوراً الى النوم بدون الاضطرار للرد على اسئلة قد تكون محرجة، فسوف اطلب منك ان تعيدي الى وجهك الآن تلك الملامح الجدية والهادئة التي تعودت جوليت على مشاهدتها».

وخفض صوته لدرجة الهمس قائلا:

«انك الآن تبدين على حقيقتك الحلوة... امرأة عاشقة ولهانة، وجدت حبها الضائع... واستمتعت به».

ثم طوّقها بذراعه وقال لها وهما يعودان الى قفصهما الذهبي:

«احتفظي بالجدية والهدوء طوال... فترتي الصباح وما بعد الظهر ففي المساء... يبدأ شهر العسل الحقيقي».